عصمة الأنبياء في القرآن

مدخلٌ إلى النبوّة العامّة

محاضرات المرجع الديني

السيّد كمال الحيدري

بقلم

محمود نعمة الجياشي

مؤسسة الهدى

للطباعة والنشر

لبنان- بيروت- الغبيري-

مقابل سنتر الإنماء

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

يطلب من

- مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة؛ بغداد

٠٠٩٦٤-٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢

٠٠٩٦٤-٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩

- مؤسسة الثقلين للثقافة والإعلام؛ كربلاء

٠٠٩٦٤-٧٨٠١٤٢١١٩٤

- معرض الكتاب الدائم؛ النجف الأشرف

٠٠٩٦٤-٧٧١١٦٤١٦٦٩

- مكتبة زين العابدين البصرة - الطويسة

٠٠٩٦٤-٧٧٠٦٠٧٢٢٧١

- مكتبة دار الأمير الناصرية - الحبوبى

٠٠٩٦٤-٧٨٠٣٠٩٨٤٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

الأنعام: (٨٢ـ٨٧)

الإهداء

إلى من أخلصوا لله... فاستخلَصهم الله لنفسهِ....

إلى الأدلّاء على الصّراط المستقيم، وسفراء الله إلى خلقه....

إلى من استنقذنا الله بهم من الشرك والضلال....

إلى مظاهر أسماء الحقّ في خلقه....

إلى رُسل الله وأنبيائه جميعاً....

أهدي هذا الجهد المتواضع.

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بعث إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين تفضلاً منه ورحمة، لكي تكون له الحجّة البالغة على خلقه، والصلاة والسّلام على عبده المنتجب ورسوله المصطفى وخاتم أنبيائه وعلى الأئمّة من ولده حُجج الله والشّهداء على خلقه والأدلاّء على صراطه.

وبعد؛

لماذا الحديث عن الأنبياء بالخصوص؟

وهل يحتاج الأنبياء إلى من يدافع عنهم فعلاً؟!

ثمّ إذا كان الحديث عن الأنبياء ضرورياً إلى هذا الحد، أفلا يكفي في ذلك ما كُتب عنهم في مجال «قصص الأنبياء»؟!

لقد تحمّل أنبياء الله ورسله من أجل إيصال رسالتهم المقدّسة إلى البشرية التي تنكّرت لهم وكأنّهم لم يعيشوا بين ظهرانيها لحظة واحدة! ولاقوا أبشع أنواع التنكيل والتعذيب والاستهزاء والسخريّة،

حتى وصل الأمر إلى أن يُقذف بعض الأنبياء بواسطة المنجنيق نحو النار الملتهبة التي جعلها الله تعالى برداً وسلاماً! بل عبّرت الإنسانية عن الأنبياء (عليهم السلام) بأنهم سحرة وكذّابون، بل مجانين! وهم بطبيعة الحال، من أبعد الخلق عن المعاني المذكورة كما يشهد بذلك وجدان الإنسانية المغيَّب!

لكن من موقع نبوّتهم ولأنهم يمثّلون الحالة الإنسانية العُليا فقد، تسامت أرواحهم الزكيّة فوق ذلك كلّه، صابرة لم تأبه بما ينالها من ألم وأذى.

في ضوء ذلك فلا أعتقد أنّهم بحاجة إلى من يقوم بتلميع صورهم في أعين الناس، كلا فإنّ هذا من شأن غيرهم، وهم أقدس من ذلك قطعاً، بل إنّ لحظات حياتهم التي عاشوها بين الناس كانت أعظم درس تتلقّاه الإنسانية في مجال الوصول إلى كمالها المنشود.

وعليه فإنّ هذا البحث ليس دفاعاً شخصياً عن الأنبياء (عليهم السلام)، بقدر ما هو تصحيح لما درج عليه القول حول ما يُمثله الأنبياء (عليهم السلام) من دور خطير في المنظومة العقائدية للإنسان المسلم.

فلا نريد هنا أن نتعرّف على أسمائهم أو متى ولدوا؟ وأين نشأوا؟ وما هي صفاتهم الشخصية؟ فكلّ ذلك ليس في منظور هذا البحث.

بل هو يتكفّل إرجاع اللبنة التي يمثلها الأنبياء (عليهم السلام) إلى مكانها الصحيح في البناء العقائدي الشامخ الذي تبنّته رسالات السماء جميعاً، وسيتّضح ما هو البُعد الحقيقي الذي يمثّله الأنبياء (عليهم السلام)

في العقيدة الإلهية الصحيحة، كما سوف نقرأ كيف يكون هؤلاء المقدّسون طرقاً لمعرفة الله (عزّ وجلّ)، ولولاهم لغرقت الإنسانية بجميع منظّريها وفلاسفتها في ظلمات الضلال والانحراف.

فالحديث عن الأنبياء إذن هو في حقيقته وجوهره حديث عن المعرفة الإلهية الحقّة، ولا أظنّ أنّ حديثاً كهذا سيكون من نافلة القول، بل سيكون فرضاً من فروض العقيدة الإسلامية الصحيحة التي نزل بها القرآن الكريم.

ويعود هذا البحث في أصله إلى الحديث عن مسألة النبوّة في القرآن الكريم، فقد كان المنهج القرآني في تناوله لهذه المسألة متمثلاً بنحوين:

١. النبوّة العامّة.

٢. النبوّة الخاصّة.

ونعني بالنبوّة العامّة مجموعة الأحكام والقضايا التي لا تختصّ بنبيّ دون آخر، بل هي عامّة وشاملة لجميع الرسل والأنبياء، كالعصمة والشهادة على الأعمال يوم القيامة وغيرها. فيما تعني النبوّة الخاصّة مجموعة القضايا التي تحدّثت عن كلّ نبيّ على حدة، وما يتميّز به من صفات تقع في طريق المعرفة الإلهية، وذلك كالخاتمية بالنسبة إلى الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله).

وقد تناول البحث النحو الأوّل من أحكام النبوّة، مبتدئاً بالوقوف على أوّل مسائل النبوّة العامّة وأكثرها أهميّة وهي مسألة عصمة الأنبياء (عليهم السلام)، وسوف يتطرّق البحث إلى بيان الملامح الحقيقية

والأركان الرئيسية لهذه المسألة مستضيئاً في تحقيق ذلك بالمنهج القرآني حول النبوّة.

من الحريّ الإشارة أنّ هذا البحث يمثّل تقريراً لإحدى عشرة محاضرة عقائدية ألقاها سماحة العلامة الأستاذ السيّد كمال الحيدري ـ حفظه الله ـ في هذا المجال.

وقد تمّ بعون الله تعالى وتوفيقه تدوينها على الورق وإخراجها بهذا الشكل الماثل بين يدي القارئ الكريم.

وحسبُنا بذلك هذه المقدّمة المختصرة عن هذا الموضوع ولا نريد أن نستبق التفاصيل، تاركين ذلك لما سيتحدّث به السيّد الحيدري في بحثه عن عصمة الأنبياء في القرآن الكريم.

وإنّي لأتوجه بعملي هذا ـ بعد الله سبحانه وتعالى ورسله (عليهم السلام) ـ إلى إخواني المؤمنين جميعاً، والله أدعو أن يجدوا فيه ما يرضي الله ويرضيهم ويرضي العلم والحق معهم، وأتضرع إليه سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وان يكتب لنا ولجميع المؤمنين توفيقاً وتأييداً من عنده إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

محمود نعمة الجياشي

ليلة الجمعة/١١ رجب/ ١٤٢٣هـ

قم المشرفة

القسم الأوّل

المقدّمات التأسيسيّة

تمهيد

يتناول البحث مسألة تُعدّ من أمّهات المسائل الاعتقادية في الدين الإسلامي وهي عصمة الأنبياء (عليهم السلام)، ولكي يكون البحث تاماً من الناحية المنهجية وتتّضح أبعاده الحقيقية لدى الإنسان المسلم لما يمثّله الأنبياء (عليهم السلام) من دور خطير وعظيم في حياة البشرية جمعاء، فلابدّ من التطرّق لعدّة مسائل هي بمثابة المقدّمات المنهجية لهذا البحث، وهي:

المقدّمة الأولى: النبوّة على ضوء القرآن الكريم.

المقدّمة الثانية: الإنسان على ضوء القرآن الكريم.

المقدّمة الثالثة: الصعود إلى الله سبحانه.

المقدّمة الرابعة: دور الأنبياء في القرآن الكريم.

المقدّمة الخامسة: درجات الأنبياء في القرآن الكريم.

المقدّمة السادسة: تفاوت الخطاب مع الله ومع الناس.

المقدّمة السابعة: المنهج القرآني في البحث حول الأنبياء.

المقدّمة الأولى: النبوّة على ضوء القرآن

القرآن العظيم هو الثقل الأكبر، والحبل الإلهي الممدود من السماء إلى الأرض الذي ينجو من تمسّك به، ويهلك من يزيغ عنه، كما في النبوي الشريف «**كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض**»[(١)].

وعظمة القرآن الكريم ليست إلا مظهر من عظمة الحيّ القيوم ووجه من وجوهه (تبارك وتعالى) وتجلٍّ من تجلياته، والحقيقة أننا يمكننا القول إنَّ الأشياء إنما تكتسب عظمتها الحقيقية عندما تقترن بالقرآن العظيم.

---

(١) وذلك في إشارة إلى حديث الثقلين الشهير، في صيغته التي تنصّ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». ينظر: صحيح الترمذي، كتاب المناقب، مناقب أهل بيت النبي، ح٣٧٨٨، وح٣٧٨٦؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب؛ مسند أحمد بن حنبل، حديث زيد بن أرقم، ح١٨٧٨٠ و١٨٨٢٦، وحديث أبي سعيد الخدري، ح١٠٧٤٧ و١٠٧٢٠ و١٠٧٢٧ و١١١٦٧، وحديث زيد بن ثابت، حديث ٢١٠٦٨؛ المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة، باب وصيّة النبي في كتاب الله وعترة رسوله. ينظر في التوثيق لهذه المصادر وغيرها، وضبط صيغ الحديث كما جاءت فيها: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ١٤٢٢هـ ج٢، ص٥٢- ٦٦.

من الأمور المهمّة التي ينبغي الإشارة إليها في مستهلّ هذا البحث، هو أن المتدبّر في آيات القرآن الكريم يجد تركيزاً واضحاً وتأكيداً متكرّراً على ذكر السير والأحوال التي تختصّ بحياة الأنبياء (عليهم السلام) في هذا الكتاب المقدّس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن الظواهر التي تلفت نظر المتدبّر في القرآن الكريم أيضاً هي أنّ هذا الكتاب لا يكتفي بذكر سيرة الأنبياء (عليهم السلام) بصورة عابرة ومختصرة، بل قد يتعرّض لبيان قصة نبيّ من الأنبياء (عليهم السلام) بصورة كاملة ومفصّلة تقريباً، كما هو الحال في سورة يوسف (عليه السلام)، أو نجده يتعرّض لذكر قصّة نبيّ منهم بصورة متكرّرة وبأساليب مختلفة ولا يكتفي بعرضها مرّة واحدة، كما هو الحال في قصّة نبيّ الله موسى (عليه السلام) مع قومه بني إسرائيل.

من هنا يمكن أن يثار السؤال الآتي: ما هو السبب الحقيقي الذي أدّى بالقرآن الكريم إلى الاهتمام بسير الأنبياء (عليهم السلام) والاهتمام بأحوالهم وأسئلتهم وأدعيتهم مع الله (سبحانه وتعالى)، بهذه الصورة الملفتة للنظر؟

ما يستشف من السؤال أنّ القرآن الكريم يدعونا جميعاً للتدبّر في آياته، وأن لا نكون من الذين ﴿**عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾. قال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[1].

سيتّضح في اللاحق من فقرات هذا البحث أنّ معرفة أحوال الأنبياء

---

(١) محمّد: ٢٤.

(عليهم السلام) في ضوء المنهج القرآني، تعدّ من المسائل الحيوية التي تمثّل مفصلاً مهمّاً في المنظومة العقائدية للإنسان المسلم.

من هذا المنطلق لابدَّ أن نعرف لماذا ركّز القرآن الكريم على معرفة الأنبياء (عليهم السلام) وبهذه الصورة المكثّفة؟ وبعبارة أخرى: ما هي الرسالة التي يريد القرآن الكريم أن يوجّهها إلينا حول هذه المسألة؟ وحينما عرض القرآن الكريم لقصص الأنبياء (عليهم السلام) وأحوالهم فقد أطلق عليها «أحسن القصص» كما قال تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾[1].

بل إنه زاد على ذلك وذكر أن قصصهم (عليهم السلام) هي عبرة لأولي الألباب، فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ**﴾[2].

يظهر ممّا تقدم أن القرآن الكريم حينما يقصّ علينا هذه القصص ومن خلال سورة طويلة وآيات متعدّدة، فإنه لا يريد أن نمرّ عليها عند قراءتها كما نمرّ على أي قصّة أو رواية أخرى، كلا، بل يريدنا أن نأخذ العبرة منها بوصفنا أصحاب العقول وأولي الألباب المشمولين أو المقصودين بالنداء الذي يوجّهه القرآن الكريم حول هذه المسألة.

ومادام الأنبياء (عليهم السلام) يمثّلون الطور الإنساني الأعلى من ناحية الكمال والوجود، وهذا هو أحد أهمّ الأسباب التي جعلتهم يتسنمون منصب الرسل بين الله تعالى وخلقه ويصبحون بذلك طرقاً بين عالم

---

(١) يوسف:٣.

(٢) يوسف: ١١١.

الغيب والشهادة وروابط بين عالمي الملك والملكوت، فيكون من الضروري حينئذ أن نعرض لمقدّمة أخرى لبيان الغرض المذكور، وللوقوف بصورة واضحة على أهميّة البحث عن معرفة الأنبياء في القرآن الكريم. تتلخّص هذه المقدّمة في تسليط الضوء وإماطة اللثام عن حقيقة الإنسان ومعرفة موقعه الحقيقي في النظام الوجودي للعالم في ضوء القرآن الكريم.

المقدّمة الثانية: الإنسان على ضوء القرآن

حينما يتعرض القرآن الكريم لذكر الإنسان وبيان حقيقته، فإنّه يتحّدث في أمرين أساسيين، هما:

١- بيان موقع الإنسان في هذا العالم من الناحية الوجودية.

٢- بيان الهدف أو الغاية التي خلق من أجلها الإنسان في هذا العالم.

من الواضح أنَّ الإنسان يمثّل إحدى اللبنات بل الأركان التي يتألّف منها هذا العالم بسماواته وأرضه وما بينهما من مخلوقات الله الأخرى التي لا إحصاء لها ولا عدد فهو الخلاق ذو القوّة المتين، وحينئذ فلابدَّ من التعرّف أو الوقوف على الموقع الحقيقي الذي يمثّله الإنسان ضمن هذه المنظومة الوجودية العظيمة، فإنّ من يبني بيتاً مثلاً، لابدَّ أن يعرف الموقع أو الدور الذي يقوم به كلّ جزء من أجزائه على وجه التحديد، وفي ضوء ذلك نسأل عن موقع الإنسان ودوره في هذا

العالم ككل.

نحاول أن نصل إلى هذه الحقيقة من خلال القرآن الكريم نفسه، وفي هذا الضوء نلاحظ أنّ الله (سبحانه وتعالى) يقرّر في كتابه العظيم بأنّ الغرض من خلق الإنسان هو أن يكون خليفة له (عز وجل) في أرضه، فالإنسان هو إذن خليفة الله في الأرض.

نستطيع من خلال التأمّل في معنى «خليفة الله في الأرض» أن ندرك الدلالات المهمّة والمعاني السامية التي تدلّ عليها هذه المقولة فإننا بمقدار ما نعرف عن الله (سبحانه وتعالى)، سوف نعرف مقدار الخلافة التي تمثّل الحق جلّ وعلا، وحينئذ فكلّما عظم الحق (سبحانه وتعالى) في أنفسنا سوف يعظم بتبعه دور الإنسان وموقعه في هذا العالم، أما إذا كانت معرفتنا بالله تبارك وتعالى معرفة محدودة تؤطرها الأفكار الضيّقة فسوف يتحدّد بتبع ذلك دور الإنسان الخليفة وتتضيّق أبعاده بطبيعة الحال.

وسيراً على هدي هذه الحقيقة، فإننا إذا عرفنا أن الله تقدّست أسماؤه يوصف بأنه فوق ما لا يتناهى بما لا يتناهى كما يعبّر بذلك الحكماء الإلهيون بمقتضى التوحيد الحقيقي الذي نؤمن به جميعاً، فسوف نعرف عظمة هذا الإنسان الخليفة ودوره الجبار في هذا الوجود الواسع وموقعه في أركان هذا العالم المحكم. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي

مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

من اللمحات التي يطويها هذا النص القرآني، أن يذكر الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى من الآيتين المتقدّمتين أنه «سريع العقاب» وأنه «غفور رحيم» في الموضع نفسه، فما هي الحكمة في ذلك يا ترى؟

يبيّن القرآن الكريم في هذه الآية أن الإنسان لما خلقه الله (عزّ وجلّ) فإنه قد وضع على مفترق طرق، وترك له الخيار في سلوك أي طريق شاء منها، فإن سلك طريق القرب منه (سبحانه وتعالى) فإنّ الله غفور رحيم، وإن سلك طريق البعد منه تعالى فإنّ الله سريع العقاب.

ينبغي أن نعرف أيضاً أنّ القرآن الكريم حينما يقرّر بأنّ الإنسان هو خليفة الله تعالى في أرضه، فإنّه لا يعني بذلك أن كلّ إنسان سيكون خليفة فعلاً، بل يمكن للإنسان أن يصل إلى مقام الخلافة له (عزّ وجلّ)، وكذلك قد يكون في أسفل السافلين، بل قد يكون أضل من الأنعام، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٣].

تأسيساً على ما سلف يقرّر الله (سبحانه وتعالى) في كتابه الكريم أن موقع الإنسان في منظومة الخلق الإلهي هو موقع الخليفة لله (عزّ وجلّ)، ولذلك

---

(١) الأنعام: ١٦٥.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

كان الإنسان هو الموجود الوحيد الذي استحقّ حمل الأمانة الإلهية التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال. قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[1].

أما السبب الذي يقف وراء تحمّل الإنسان لهذه الأمانة العظيمة فيعود إلى امتلاكه لتلك الإمكانات الهائلة والقدرات الخلاّقة التي يفقدها غيره من المخلوقات، ولعلم الله (سبحانه وتعالى) بذلك فقد عهد بالخلافة لهذا المخلوق الذي هو سيد المخلوقات، وذلك في الوقت الذي تعجّبت فيه الملائكة من هذه الخلافة وكيفية جعلها للإنسان، كما تحدّثنا عن ذلك الآية الكريمة الآتية: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

لكي يكون الإنسان قادراً على تحمّل هذه الأمانة الإلهية وما يتبعها من مسؤوليات جسيمة، وقابلاً لأن يتبوّأ هذا المكان الخطير، فينبغي أن تتوفّر بين يديه كلّ الوسائل المتاحة والأدوات اللازمة التي توصله إلى ذلك، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته، حيث قرّر بأنّ كلّ ما يزخر به هذا الوجود هو مسخّر للإنسان الخليفة، قال تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي**

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) البقرة: ٣٠.

ذَلِكَ لآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

فالسماوات والأرض وما فيهنّ وما بينهنّ كلها مسخّرة لخدمة الإنسان الخليفة، بل يذهب القرآن الكريم إلى أبعد من ذلك ويقرّر بأنّ دور الملائكة إنما هو لأجل الإنسان أيضاً. فإيصال الوحي وتقسيم الأرزاق وتدبير أمور الإنسان كلّها من وظائف الملائكة. وقد يكون شيئاً غريباً إذا قلنا أن الشيطان في خدمة الإنسان كذلك!! لأنّ اختيار طريق الخير وسلوكه في قبال العزوب عن طريق الشر وهجرانه لا يمكن أن يتحقق من الإنسان في غياب وسوسة الشيطان، ومن هنا نعرف بأنّ هذه الوسوسة الشيطانية هي إحدى المحطّات التي تقع في طريق رقيّ الإنسان نحو الكمال. فالجميع إذن من أعلى مخلوقات الله المقرّبين إلى من هو دونهم ليسوا إلا أشياء مسخّرة لخدمة خليفة الله (عزّ وجلّ) في أرضه.

على هذا الأساس نستطيع أن نقول بأنّ موقع الإنسان في عالم الخلق والوجود، هو المركز الذي يدور حوله كلّ شيء. وهذا هو الجواب عن السؤال الأوّل.

الهدف من وجود الإنسان

على أساس ما مرّ في الجواب عن السؤال الأول من أنّ موقع الإنسان في هذا العالم هو كونه خليفة الله (عزّ وجلّ)، الذي صار من

---

(١) الجاثية: ١٣.

خلاله موضعاً لحمل الأمانة الإلهية العظيمة، فلابدّ أن نسلّط الضوء على الهدف من ذلك كلّه والغاية منه. وهذا هو السؤال الثاني الذي نودّ الإجابة عنه على ضوء القرآن الكريم أيضاً. لننظر الآن ماذا يقول الله (عزّ وجلّ) في كتابه العظيم حول الهدف الذي خلق من أجله الإنسان؟

يقرّر القرآن الكريم بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض يعتريه أن الهدف من ذلك هو شيء واحد لا غير، وهذا الهدف هو الرجوع إلى الله (سبحانه وتعالى) والصعود إليه، فإنّ خلق الإنسان وبهذه الصورة التي مرّت معالمها لم يأت عبثاً أو لعباً أو بلا غاية وحكمة، بل هناك هدف لابدّ من الوصول إليه، وهذا ما تقرّره الآية الكريمة الآتية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾[1].

يطلق القرآن الكريم على هذا الهدف تارة بـ«الرجوع» كما في الآية المتقدّمة، ويصطلح عليه أخرى بـ«الصعود»، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2].

من هذا المنطلق يمكن أن يطرح السؤال الآتي نفسه: ما هي الحكمة في تسمية ذلك الهدف الذي خُلق من أجله الإنسان بمصطلح «الصعود إلى الله سبحانه وتعالى»؟

تنقلنا الإجابة عن هذا السؤال إلى الوقوف على حقيقة أخرى سوف يميط اللثام عنها تفسير معنى «الصعود» وربما تُعدّ هذه الحقيقة

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

(٢) فاطر: ١٠.

أهم الأفكار التي يطرحها القرآن الكريم، في تفسير المبدأ الذي انطلق منه الإنسان والغاية التي سوف يؤول إليها.

يقّرر القرآن الكريم في كثير من آياته أن لإنسان قد «أنزل» أو «أهبط» إلى هذا العالم. وهذا يعني أنه كان موجوداً في عالم آخر هو أعلى من عالم الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿**اهْبِطُوا مِنْهَا**﴾[1].

على ضوء هذه الآية الكريمة يمكن أن نفهم بأن الهبوط لا يتحقق إلا عن علو، ولذا يعبّر علماؤنا عن هذه الحقيقة ويقرّرون بأنّ الإنسان كان في نشأة فوق هذا العالم ثم أهبط منها إلى حيث عالم الدنيا. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾[2].

أي أنه كان في نشأة عليا ثم أنزلناه ورددناه إلى هذه النشأة التي هي أدنى النشآت وأسفلها.

ومادامت هذه هي الحقيقة فيأتي في ضوءها معنى «الصعود» جلياً واضحاً، أي أن الإنسان بعد ما أهبط إلى هذا العالم فإن الله تعالى أمره بالصعود والرجوع إليه. وعلى هذا الأساس نفهم بأنّ الدائرة الوجودية التي يمر من خلالها الإنسان تتكوّن من طريقين، الأول هو طريق نزوله إلى عالم الدنيا وهبوطه إليه، والآخر هو طريق صعوده من عالم الدنيا

---

(١) البقرة: ٣٨.

(٢) التين: ٤- ٥.

إلى حيث العالم الأعلى عند الله (سبحانه وتعالى). وهذان الطريقان هما اللذان يعبّر عنهما في كلمات أهل المعرفة بقوسي النزول والصعود، ومن ذلك قول المحقّق الأصفهاني (قدس سره) في حق سيدة نساء العالمين (عليها السلام) حينما يقول:

فإنها قطبُ رحى الوجود في قوسي النزول والصعودِ[1]

معنى قوسي النزول والصعود

لكي يكون البحث عن الهدف الذي خلق من أجله الإنسان تاماً، لابدّ أن نتعرّف بنحو الاختصار على حقيقة الفرد الموجود بين هذين الطريقين أو القوسين اللذين يتمّم بعضهما بعضاً ليصنعا الدائرة الوجودية التي يمرّ بها الإنسان.

يكمن الفرق بينهما في أنّ الإنسان في الطريق الأول أو ما يعبّر عنه بقوس النزول ليست الأمور بإرادته واختياره، من هنا لا يكون الإنسان مسؤولاً عن أحواله وشؤونه في هذا الطريق، أما في الطريق الثاني وهو طريق الرجوع إلى الله (تبارك وتعالى) أو ما يعبّر عنه بقوس الصعود، فإنه يكون مريداً ومختاراً أيضاً، ولذا تنحصر مسؤوليته الأساسية بتحمّل كلّ ما يقع منه في هذا الطريق بالخصوص.

---

(١) الأصفهاني، الشيخ محمد حسين (ت: ١٣٦١هـ) الأنوار القدسيّة: ص٣٧، صحّحه وعلّق عليه علي النهاوندي، مؤسسة المعارف الإسلاميّة.

المقدّمة الثالثة: الصعود إلى الله

الصعود إلى الله (تبارك وتعالى) والرجوع إليه هما الغاية الحقيقية والهدف الأسمى الذي خلق من أجله الإنسان، وحينئذ لابدّ من الوقوف على حقيقة الصعود وكيفيته. فما معنى أن يصعد الإنسان إلى ربه؟ وكيف يتمّ هذا الصعود؟ من الواضح أن هذه الأسئلة تنطلق من واقع يفيد أنّ الرجوع إليه تعالى حقيقة واقعة لا مفرّ منها إطلاقاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾[1].

تقرّر هذه الآية الكريمة وبأسلوب رائع بأن الإنسان «كادح إلى ربه»، ومن المعلوم لغوياً أن «إلى» تفيد الغاية والنهاية، وهذا يعني أنّ هناك ابتداءً تكون نهايته إلى الله (عزّ وجلّ)؛ إنّ هناك شيئاً يبدأ به الإنسان لكي ينتهي إلى لقاء الله تبارك وتعالى.

هذا اللقاء لا يكون بالضرورة عند نقطة واحدة يصلها الجميع، بل إنّ نهاية هذا اللقاء تكون عند تخوم مفترق؛ فإمّا أن تكون عند نقطة «غفور رحيم»، وأما عند نقطة «سريع العقاب»، والإنسان مخيّر في اختيار أحد هذين اللقاءين. فإن الإنسان قد يلاقي سيده في قصره عند صالة التشريفات، وقد يكون لقاؤه في السجن! وما أعظم الفرق بين هذين اللقاءين! وفي هدي هذه الحقيقة لابدّ للإنسان من تحديد محلّ لقائه بالله (تبارك وتعالى) من الآن.

تأسيساً على ما سلف نسأل من جديد: ما هو معنى الصعود إلى الله؟

---

(١) الانشقاق: ٦.

أو ما معنى اللقاء به (سبحانه وتعالى)؟

حقيقة لقاء الله (عزّ وجلّ) هي إحدى الحقائق القرآنية التي أكّدتها عشرات الآيات الكريمة، فقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَلاَ أَنَّهم فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4].

إذن، فنحن مدعوّون جميعاً للقاء الله (تبارك وتعالى)، ومن اللازم حينئذ أن نعدَّ العدّة اللازمة للوصول إلى هذا اللقاء، ومن الجليّ أنّ الوصول لا يمكن أن يتحقّق إلا بالتقرّب شيئاً فشيئاً نحو الهدف والتحرك صوب الغاية التي نرمي الوصول إليها.

---

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) العنكبوت: ٥.

(٣) فصّلت: ٥٤.

(٤) الزمر: ٧١.

وهذا هو معنى ما درجنا على تكراره يومياً وفي كلّ صلاة بل في كلّ عبادة، من أن هذه العمل قربة إلى الله (سبحانه وتعالى)، فكل مؤمن ينتظر من وراء عمله أن يكون مقرّباً له نحوه (تبارك وتعالى).

إلا أن السؤال الجوهري في هذه النقطة والذي ينبغي التلبّث عنده على نحو دقيق، هو: هل الله (سبحانه وتعالى) بعيد عن عباده حتى يريدوا الاقتراب منه بأعمالهم؟!

أيجوز ذلك، وها هو القرآن الكريم يصّرح في عشرات الآيات على خلافه؟! لنمكث سوية مع الآيات الكريمة الآتية:

قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[2].

وقال أيضا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾[3].

بل إنه سبحانه أقرب من ذلك، حيث يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4].

بل نجد أنّ قربه سبحانه من العبد يتجلّى بصورة أوضح، حينما نسمع قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ

---

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) الحديد: ٤.

(٣) البقرة: ١٨٦.

(٤) ق: ١٦.

تُحْشَرُونَ﴾[١].

فإذا كان الله (جلّ وعلا) أقرب من كلّ شيء إلينا، بل هو أقرب من أنفسنا إلى أنفسنا! فما معنى أننا نريد أن نتقرّب إليه بأعمالنا حينئذ؟ أو ما هو معنى الوصول إليه؟ وهل يكون القريب منّا بهذا القرب بعيداً حتّى نصل إليه بصلواتنا وأعمالنا العبادية الأخرى؟!

ثم إذا كان (سبحانه وتعالى) قريباً منّا إلى هذا الحد، فلماذا لا نراه يا ترى؟ وما أروع كلمة الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء يوم عرفة، حين يقول: «متى بَعدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك عميت عين لا تراك عليها رقيباً»[٢].

معنى القرب منه سبحانه

تسمح المعطيات التي أثارتها الأسئلة المذكورة حول حقيقة القرب من الله (عزّ وجلّ) وما طوته من إضاءات؛ تسمح بالإجابة على التساؤل السالف، على نحو النحو التالي: إن الصحيح هو ما قرّرته الآيات الكريمة المذكورة آنفاً من أنّ الله تعالى ليس قريباً من الإنسان فقط بل

---

(١) الأنفال: ٢٤.

(٢) من دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة. ينظر: ابن طاووس، السيد رضي الدين علي بن موسى (ت: ٦٦٤ هـ)، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، ضبط مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤١٥ هـ، ج٢، ص٧٤.

هو أقرب إليه من نفسه إلى نفسه، إلا أنّ الإنسان هو الذي يكون بعيداً عنه سبحانه وتعالى، بالرغم من أن الله (عزّ وجلّ) قريب منه!

قد تكون هذه المفارقة بحاجة إلى توضيح أكثر، فكيف يكون الشيء قريباً من الشيء الآخر وفي الوقت نفسه يكون هذا الآخر بعيداً عنه؟

لنضرب لذلك مثالاً يقرّب هذه المفارقة إلى الذهن، فلو فرضنا أنّ هناك إنساناً بصيراً يجلس إلى جانبه إنسان أعمى، فالبصير يرى بكلّ وضوح أنّ الأعمى قريب منه، إلا أن الأعمى لا يرى أنّ البصير قريب منه إلى هذا الحد! من الواضح هنا أن المشكلة في عدم رؤية الأعمى للبصير تكمن في الأعمى نفسه، فإذاً ليس الله تعالى هو البعيد عنّا حتّى نريد أن نتقرّب إليه، بل نحن البعيدون عنه وينبغي أن نسوق أنفسنا للتقرّب إليه، وبتعبير آخر فإنّ المشكلة تكمن في الإنسان نفسه لأنه هو الأعمى؟!

لكن لماذا صار الإنسان أعمى إلى هذا الحد؟ أو لماذا أصبحنا نرى كلّ شيء سوى الله (سبحانه وتعالى)؟!

هذا كتاب الله (عزّ وجلّ) يقرّر هذه الحقيقة ويصرّح بأنّ المشكلة في البعد عنه تعالى تكمن في الإنسان نفسه، وهي ذي كلمات الحق التي تقرع الأفئدة وتهتز معها جدران النفس: ﴿**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا**

فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١].

يقرّر القرآن الكريم بأنّ الغطاء هو غطاءكم الذي شيّدتموه على أعينكم وغلّفتم به قلوبكم، وإلا فإنّ الحقيقة التي تبتغون التقرّب منها والوصول إليها لا غطاء لها، كيف وهي نور السماوات والأرض؟! إلا أنك أيها الإنسان قد كنت في غفلة عن هذا!! فمتى تصحو أيها الإنسان عن هذه الغفلة وتحطّم ذلك الغطاء الذي كان يحجبك عن الحق (سبحانه وتعالى)؟ ومتى تخلع جلابيب المعاصي وتنفض غبار الذنوب عن نفسك؟ حتى تصبح من الذين لا يرون شيئاً إلا ويرون الله تعالى معه وقبله وبعده، ولنستمع إلى باقر علوم أهل البيت (عليهم السلام) وهو يقرّر حقيقة القرب عنه (عزّ وجلّ):

عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن عبد الله بن سنان، عن أبيه، قال: حضرت أبا جعفر (عليه السلام) فدخل عليه رجل من الخوارج فقال له: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟ قال: «**الله تعالى، قال: رأيته؟ قال: بلى، ولكن لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس ولا يُدرك بالحواس ولا يشبه الناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو، قال: فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل**

---

(١) ق: ٢٢.

رسالته»[١].

بيدَ أنّ السؤال:

ما هو الطريق الذي يوصل الإنسان إلى هذا المقام الشامخ من المعرفة الإلهية وكيف يرى الإنسان ربه بحقائق الإيمان؟

عند العودة إلى كتاب الله تراه يقرّر أن الطريق الوحيد الذي لابدّ للإنسان من سلوكه للوصول إلى ربّه في تلك المقامات المقدّسة هو «العبودية» لا غير، أي أن يكون الإنسان عبداً حقيقياً له سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

فالمهم في نظر القرآن الكريم هو أن يعبد الإنسان ربّه حقّ عبادته، وأن لا يقوم بشيء مهما كان صغيراً من شأنه أن ينافي هذه العبودية ويخرجه عن زيّها.

على ضوء هذه الحقيقة نرى أن الله (سبحانه وتعالى) حينما يكلّم أنبياءه ويخاطب رسله وخاصة نبيّه الخاتم (صلى الله عليه وآله)، فإنه يطلق عليهم صفة «العبد»، ويختارها لهم من دون سائر الصفات الأخرى كـ«الرسول» أو «النبي» مثلاً، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[٣].

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، باب في إبطال الرؤية، وكذلك أنظر شرح الأصول من الكافي للمازندراني: ج٣، ص١٧٩.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) الإسراء: ١.

لم يقل سبحانه وتعالى «أسرى برسوله» أو «بحبيبه» أو غيرها من صفات النبي (صلى الله عليه وآله)، بل قال «بعبده»، وبهذا التعبير يضع القرآن الكريم أيدينا على حقيقة في غاية الأهمية، وهي أن طريق الإسراء والمعراج ورؤية ملكوت السماوات والأرض لا يكون صحيحاً إلا إذا مرّ من خلال العبودية الكاملة لله عزّ وجلّ، فإنّ ذكر وصف «العبد» في هذه القضية يشعر بأنّ السبب في الوصول إلى رؤية الملكوت وكون الإنسان قاب قوسين أو أدنى علواً واقتراباً من العلي الأعلى، هو عبوديته الحقيقية والكاملة لله (عزّ وجلّ).

فالسبيل الوحيد إذاً لوصول الإنسان إلى الله (تبارك وتعالى) هو «العبودية»، ومن هذا المنطلق ينبثق سؤال مهم في التسلسل المنهجي لهذا البحث، يرتبط بما يعبده الإنسان، أو مدى معرفته به، وفيما إذا كان يعبد شيئاً لا يعرفه أم ماذا؟

هل يعبد الإنسان ما لا يعرف؟

الجواب بالتأكيد هو بالنفي لا محالة، لأنّ العبودية فرع معرفة المعبود سبحانه وتعالى، والعبودية لا تكون حقيقية له ومقرّبة إليه إلا بمعرفته، كيف لا، وإن العبودية حال الجهل بالمعبود قد تكون مبعدة منه لا مقربة إليه! إن أردنا أن نضرب لذلك مثالاً، فإنّ حال العابد الجاهل بمعبوده لا يختلف كثيراً عن حال الإنسان الذي لا يعرف عنوان المدينة التي يريد السفر إليها، فقد لا تزيده سرعة المشي إلا بعداً

منها، وفي ضوء ذلك يقرّر الإمام الصادق (عليه السلام) هذه الحقيقة عندما يقول:

«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة المشي إلا بعدا»[١].

على ضوء مجموع ما سلفت إليه الإشارة نكون قد أجبنا عن كلا السؤالين اللذين ذكرناهما في مستهل هذا البحث، فقد تعرفنا على موقع الإنسان ضمن المنظومة الوجودية لهذا الكون، وعرفنا أنه خليفة الله في أرضه، وأنه المركز الذي يدور حوله كلّ شيء، وثبت أيضاً أن الهدف والغاية التي خُلق من أجلها الإنسان هي الوصول إليه (سبحانه وتعالى) والرجوع إليه.

ثم تأسيساً على هاتين الحقيقتين اتّضح أيضاً، أن الطريق الوحيد الذي يوصل إلى الهدف المذكور ليس إلا العبودية الحقيقية له (تبارك وتعالى). وهذه لا تحصل إلا من خلال المعرفة الحقيقية للمعبود عزّ اسمه. فالخطوة الأولى إذاً في سلوك هذا الطريق القويم، هي معرفة الحق (سبحانه وتعالى).

لكن كيف تحصل هذه المعرفة؟ وما هي السبل الكفيلة في تحقيقها؟

تنقلنا الإجابة عن هذا التساؤل إلى معرفة الدور الذي يمثّله الأنبياء

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي: ج١، ص٤٣.

(عليهم السلام) في البنية الإيمانية الصحيحة لمعرفة الله (عزّ وجلّ). وهذا ما يتطلّب الوقوف على دور الأنبياء (عليهم السلام) في هداية البشرية جمعاء للوصول إلى الحق (سبحانه وتعالى)، في ضوء المنهج الذي يطرحه القرآن الكريم في هذه المسألة.

المقدّمة الرابعة: دور الأنبياء في القرآن

تناول القرآن الكريم ذكر الأنبياء (عليهم السلام) وبيان أحوالهم وسير حياتهم، كما تطرق إلى طريقة كلامهم مع الله (سبحانه وتعالى)، وغير ذلك مما يختص بهم (عليهم السلام)، وفي ضوء ذلك لابدّ من وضع اليد على السبب الحقيقي الذي يكمن وراء هذا التركيز القرآني حول مسألة الأنبياء (عليهم السلام).

يتم الحديث عن الأنبياء (عليهم السلام) في ضوء المنهج القرآني، من خلال الوقوف على بعدين:

البعد الأول: وهو البعد المعرفي في شخصية الأنبياء (عليهم السلام)، فهل لمعرفة الأنبياء دور حقيقي في معرفة الله (عزّ وجلّ) أو لا؟

البعد الثاني: وهو البعد العملي في شخصية الأنبياء (عليهم السلام). والمقصود منه معرفة كيف كان يتعامل الأنبياء بمختلف درجاتهم مع الله سبحانه، وهم مظاهر أسمائه وتجلّ من تجلياته.

ستكفل المقدمة الرابعة هذه تغطية البعد الأول الماثل في الجانب المعرفي من شخصية الأنبياء (عليهم السلام)، على حين يصار إلى تغطية

البعد الثاني الماثل في الجانب العملي في المقدمة الخامسة بإذن الله.

البعد المعرفي في شخصية الأنبياء

من المعلوم أنّ المعرفة الحقيقية التامة لله (سبحانه وتعالى) والوقوف على كنهه (عزّ وجلّ) مستحيلة على الإنسان، بعبارة أخرى فإنّ الطريق مغلق على الإنسان بخصوص هذا النوع من المعرفة[1].

وإنما يمكن معرفة الله (سبحانه وتعالى) من خلال أسمائه وصفاته، فلو لم يسمّ الله تعالى نفسه بالحي أو المميت أو الرازق والرؤوف والرحيم وغيرها من أسمائه وصفاته المقدسة، لما كان الإنسان قادراً على نيل معرفته عزّ وجلّ. فهذه الأسماء والصفات هي الشيء الوحيد الذي يتوسل به الإنسان للوقوف على المعرفة الإلهية الصحيحة التي يمكن أن ينالها الإنسان.

هنا يكمن مغزى ما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) لما سأله ابن سنان، حيث قال: «**سألت أبا الحسن (عليه السلام): هل كان الله (عزّ وجلّ) عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نعم، قلت: يراها ويسمعها؟ قال: ما كان محتاجاً إلى ذلك لأنه لم يكن يسألها ولا يطلب منها، هو نفسه ونفسه هو، قدرته نافذة فليس يحتاج أن يسمّي نفسه، ولكنه اختار لنفسه اسماً لغيره يدعوه بها لأنه إذا لم يُدع باسمه لم**

---

(١) ينظر: التوحيد: بحوث في مراتبه ومعطياته، تقريراً لدروس السيد كمال الحيدري، جواد علي كسّار: ج١، ص١٧٦.

يُعرَف»[١].

من جهته تعرّض القرآن الكريم لذكر مائة وسبعة وعشرين اسماً من أسماء الله (سبحانه وتعالى)، ويمكن أن توزع هذه الأسماء على قسمين:

الأول: أسماء كلية، ونعني بها تلك الأسماء التي تقع تحت أسماء أخرى له (سبحانه وتعالى)، وذلك كاسم «القادر» فإنّ هناك مجموعة الأسماء التي تقع تحت هذا الاسم كالمميت والرازق والمحيي والباسط والقابض، ولذا نعبّر عن مثل اسم القادر بالاسم الكلّي.

الثاني: الأسماء الجزئية، وهي مجموعة الأسماء التي تدخل تحت غيرها من الأسماء الإلهية، كالمحيي والمميت فإنهما داخلان تحت اسم القادر.

يضاف إلى هذه الأسماء اسمٌ آخر اختص به (سبحانه وتعالى) وهو الاسم الأعظم، ومن ذلك ما ورد في الدعاء المعروف (اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأعظم الأعظم)، ولعل هذا التكرار إشارة إلى أن الله (عزّ وجلّ) أعظم في الذات وأعظم في الصفات وأعظم في الأفعال، وهو ما يعبر عنه بمراتب التوحيد الثلاث؛ الذاتي والصفاتي والأفعالي.

وفي ضوء حقيقة الأسماء الإلهية فإن الله تعالى أراد أن يعرّف نفسه لخلقه من خلال أسمائه وصفاته، بيد أنّ السؤال المهم ينصبّ على كيفية تحقّق التعريف وبأيّ صورة يحصل؟

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، باب حدوث الأسماء، ح٢.

معرفة الله من خلال الأسماء والصفات

يعرض المنهج القرآني لبيان هذه الحقيقة ويقرّر بأنّ لله تعالى مخلوقات تدلّ على أسمائه وصفاته، فنرى مثلاً كيف يتجلّى اسم «المميت» في أحد ملائكته تعالى وهو عزرائيل (عليه السلام)، وهذا يعني أنّ هذا المخلوق قد صار مصدراً وأصبح منشئاً لفعل مرتبط باسم «المميت». قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[1].

فمن خلال هذا المخلوق وما يصدر منه من أفعال، يتعرف الإنسان على أنّ الله (سبحانه وتعالى) «مميت».

وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

إذاً، فالملائكة الذي يرزقون أو يدبرون أمر الخلق، ليسوا هم إلا مظاهر لأسمائه (سبحانه وتعالى). إلاّ أنّ المشكلة التي تقف في طريق معرفة الله (سبحانه وتعالى) من خلال الملائكة هي عدم قدرة الإنسان على ممارسة حياته الطبيعية مع هذه المخلوقات، وعليه فكيف تحصل معرفة الباري تعالى من خلالهم؟

لكي تنطلق المعرفة الإلهية في هذا العالم الذي تتحكّم به مجموعة من القوانين التكوينية الخاصّة، ينبغي أن تكون الآيات والعلامات التي

---

(١) السجدة: ١١.

(٢) فصلت: ٥٣.

تقود البشرية إلى تلك المعرفة موجودة في هذا العالم أيضاً ومحكومة بقوانينه نفسها، وحينئذ يمكن القول بأنّ هذه الآيات يمكن أن تتمثّل في أولياء الله تعالى وتتجسّد بعباده المخلصين الذين استحقّوا أن يصبحوا مظاهر للأسماء الإلهية المقدسة، حتّى تناط بهم مهمّة الهداية لباقي المخلوقات.

بهذا يكون الأنبياء (عليهم السلام) هم المصداق الأوضح لهؤلاء الأولياء الصالحين وعباد الله المخلصين الذي صاروا كالمرايا التي تنعكس عليها تجلّيات الحق (سبحانه وتعالى)، وذلك بمقتضى درجة الصفاء التي حصلت في نفوسهم الطاهرة وأرواحهم الزكيّة التي تستطيع أداء هذه المهمّة العظيمة من خلالها.

تأسيساً على هذه الحقيقة تصبح معرفة الإنسان بالله (سبحانه وتعالى) منوطة بمعرفته بحقيقة الأنبياء (عليهم السلام) سلباً وإيجاباً، فكلّما كانت المعرفة بهم أفضل وأعلى صارت المعرفة به (عزّ وجلّ) كذلك، والعكس بالعكس.

في هذا السياق يمكن أن نفهم ما ورد من أن ذكر عليّ (عليه السلام) عبادة، فهو (سلام الله عليه) يمثّل المرآة الصافية التي يتجلّى فيها الحق (سبحانه وتعالى) لخلقه، فمن ذكره فقد ذكر الله تعالى، ومن أحبّه فقد أحبّ الله تعالى، ومن ثم فإنّ من عرفه (عليه السلام) فقد عرفه تعالى. وهذه الحالة المرآتية لمعرفة الله عزّ وجلّ، ليست مختصّة به (عليه السلام) بل هي موجودة في جميع الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين، إلا أنها

تختلف شدّة وضعفاً من واحد إلى آخر تبعاً لما يمثّله كلّ واحد منهم من درجة وجودية تستطيع أن تعكس من تجلّيات الحق تعالى ما يتّسع له الإناء الوجودي للنبي أو الوصي (صلوات الله وسلامه عليه).

على أن القرآن الكريم نفسه يقرّر هذا التفاوت في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1].

يتّضح مما تقدم أن الآية الكريمة تشير إلى أنّ هذا التفضيل ليس تفضيلاً اعتبارياً، بل هو تفضيل وجودي وتفاوت تكويني، فبعض الرسل قادر على أن يكون مرآة لاسم جزئي من أسماء الحق تعالى، وبعضهم يكون مرآة لاسم كلّي وهكذا.

يترتّب على ذلك أنه لا طريق للقرب والرجوع إلى الله (سبحانه وتعالى) على مستوى البعد المعرفي إلا من خلال العبادة المتّكئة في وجودها وأحقّيتها على وجود المعرفة، ولا طريق لحصول المعرفة إلا من خلال الأسماء والصفات، ثم لا طريق إلى ذلك إلا من خلال التعرّف على مظاهر هذه الأسماء في هذا العالم، وهم الأنبياء والمرسلون وعباد الله الصالحون. وبهذا يتضح مدى أهمية دراسة الأنبياء (عليهم السلام) ومعرفتهم في ضوء المنهج القرآني القويم.

مادام الأنبياء (عليهم السلام) هم المصداق الأوضح لآيات المعرفة الإلهية، فحينئذ ستندرج المخلوقات الأخرى بأجمعها في قائمة الآيات

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

الموصلة إليه (سبحانه تعالى)، بيد أنها تتفاوت في ذلك أيضاً تبعاً لمرتبتها الوجودية.

قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾[2].

لكن من هم أولو الألباب؟

يقرّر القرآن الكريم أوصافهم في الآية اللاحقة حيث يقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3].

فأصحاب العقول في المنظور القرآني هم الدائمون على ذكره تعالى وهم الذين يسرحون أفكارهم تمعّناً في آياته (عزّ وجلّ)، وذلك بمقتضى القاعدة التي تفيد أنّ كلّ شيء في هذا العالم إنما هو آية من آيات الله (عزّ وجلّ) وعلامة من علاماته؛ كما قال الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية ... تدل على أنه واحد

غاية الأمر أنّ هذه المخلوقات لا تدلّ عليه (سبحانه وتعالى) بدرجة

---

(١) الذاريات: ٢٠.

(٢) آل عمران: ١٩٠.

(٣) آل عمران: ١٩١.

واحدة أو بشكل متواطئ إن صحّ التعبير، بل تتفاوت معرفته (سبحانه وتعالى) من خلال آياته من مخلوق إلى آخر، ولا تتوقف هذه الدرجات من المعرفة عند حدٍّ معين بطبيعة الحال، بمقتضى عدم تناهي كمالات الله (عزّ وجلّ) وعدم محدودية أسمائه وصفاته.

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[1].

فالفيض النازل من السماء ليس له حجم معين أو شكل محدود، إلا أنه حينما يصل الأرض يتحدّد بحدود المحل القابل له أو حجم الإناء الذي يحلّ فيه، وحينئذ فكمالات الله (سبحانه وتعالى) ليس لها حدٌّ في نفسها، وإنما تتحدد بحدود الموجودات التي تعكس جمال الله (عزّ وجلّ) وكماله بالمقدار التي هي عليه من الوجود، ويستحيل أن يكون هناك مخلوق له القدرة على أن يعكس كلّ جماله وكماله (سبحانه وتعالى).

قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2]. لماذا؟ لأن تقديره (سبحانه وتعالى) حق قدره لا يتحقق إلا من خلال معرفته حق معرفته، ومن غير الممكن أن يوجد مخلوق بهذا المستوى من المعرفة بالحق (سبحانه وتعالى). وما دام طريق المعرفة يمرّ دائماً وأبداً من خلال الآيات، وهذه محدودة دائماً كما عرفنا، فيترتّب على ذلك أنّ معرفتنا به سبحانه وتعالى هي بقدرنا لا بقدره، وتبعاً لذلك أيضاً ستكون عبادة الإنسان له تعالى بقدر

---

(١) الرعد: ١٧.

(٢) الأنعام: ٩١.

الإنسان لا بقدره سبحانه.

ما دامت المعرفة تتم بتوسط الآيات، من الطبيعي أن ينصب البحث حينئذ عن تلك الآيات الإلهية التي تكون أفضل وأوسع وأصفى مرايا تعكس لنا المعرفة الإلهية الحقيقية، حيث مرّ أنّ الأنبياء (عليهم السلام) هم الذي يمثّلون هذا المستوى الشامخ والدرجة العليا من مظهرية الحقّ (سبحانه وتعالى). وبذلك يتّضح السبب الحقيقي الذي يكمن وراء التركيز القرآني على معرفة الأنبياء (عليهم السلام) وأن قصصهم إنما هي عبرة لأولي الألباب، وذلك أنّهم (عليهم السلام) هم الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه العبد لغرض الوصول إلى لقاء الله (عزّ وجلّ).

فالحديث إذاً عن معرفة الأنبياء (عليهم السلام) هو في حقيقته حديث في صميم المعرفة الإلهية، وهذا هو ما نطلق عليه «البعد المعرفي» في حياة الأنبياء (عليهم السلام).

ومادام هذا البعد يتفاوت من نبيّ إلى آخر تبعاً للتفاوت الحاصل في درجاتهم الوجودية ومقامات قربهم من الله عزّ وجلّ، فينبغي أن نقف على الأبعاد الحقيقية لهذا التفاوت من زاوية ما يمليه المنهج القرآني نفسه في هذه المسألة.

المقدّمة الخامسة: درجات الأنبياء في القرآن

ينصّ القرآن الكريم في غير آية من آياته على أنّ الأنبياء (عليهم

السلام) ليسوا على درجة واحدة من جهة الكمالات الوجوديّة التي يتمتّع بها كلّ واحد منهم.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[2].

على ضوء هاتين الآيتين الكريمتين نفهم أن أحد معاني التفضيل هو أنّهم سلام الله عليهم يتفاوتون وبتبعه يتفاضلون في مظهريتهم لأسماء الله تعالى وصفاته. وهذا يعني أن من عرف نبيّ الله داود (عليه السلام) أو يوسف (عليه السلام)، فإنه سوف يصل بذلك إلى معرفة الحق (سبحانه وتعالى)، إلا أن هذه الدرجة من المعرفة ليست كالدرجة التي يصلها من يعرف خاتم النبيين محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) أو أحد أنبياء أولي العزم (عليهم السلام) لأن هؤلاء الرسل الكرام أفضل من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾[3].

فهذه الآية تشير إلى الأنبياء جميعاً، بيد أنها ميّزت الخمسة من أولي العزم، ثم أنها جعلت الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) أول هؤلاء الخمسة، كما ينمّ بذلك قوله سبحانه «منك» الذي أعقب ببقية أولي العزم (عليهم السلام).

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) الإسراء: ٥٥.

(٣) الأحزاب: ٧.

من هنا لا يقصد هذا البحث أن يكون حديثاً منصباً على قصص الأنبياء في القرآن الكريم حسب المعنى المتبادر من كلمة «قصص» بل ينصب على تحديد البعد المعرفي الذي يمثّله هؤلاء الأنبياء في الوصول إلى معرفة الحق (سبحانه وتعالى) من خلال أسمائه وصفاته.

وذلك لا يتحقّق إلا بالوقوف على معرفة مقاماتهم ودرجات قربهم منه عزّ وجلّ، ومدى مرآتيتهم وحدود مظهريتهم لتجلّيات الحقّ تعالى، لأنهم (عليهم السلام) من أعظم آياته التي أمرنا أن نتفكّر فيها في حدود هذا العالم.

البعد العملي في شخصية الأنبياء

بعد أن تمّ استيفاء الكلام عن البعد المعرفي في شخصية الأنبياء عبر المقدّمة السابقة، نتوفّر في هذه النقطة على تغطية البعد العملي.

المقصود من هذا البعد، هو كيف كان يتعامل هذا النبي أو ذاك مع الله، وكيف كان يتكلم مع الحق سبحانه حينما أصبح مظهراً من مظاهر أسماء الله تعالى وتجلّياً من تجلّياته، ومرآة صافية تعكس لنا صفة من صفاته أو اسماً من أسمائه (عزّ وجلّ)؟ ثم ما هو أدب العبودية الذي سار عليه هؤلاء الأنبياء مع خالقهم؟ وكيف كانت طريقة معاملتهم مع الناس وهم في هذه الدرجة من القرب إلى الله (عزّ وجلّ)؟

تتجلّى أهميّة هذا البعد في حياة الأنبياء (عليهم السلام) من حيث أن الإنسان لابدّ أن يتعلم الطريقة الصحيحة في الكلام مع الله تعالى وكيفية

التوجّه له بالدعاء، مضافاً إلى كيفية تعاطيه مع أمثاله من الناس بالنحو الذي يوصله إلى القرب الإلهي.

أول حقيقة تبرز على هذا الصعيد هي وجود التفاضل، فكما أنّ التفاوت والتفاضل موجود في البعد المعرفي عند الأنبياء (عليهم السلام) فكذلك الحال في هذا البعد، أي أنّهم يتفاضلون في البعد العملي في حياتهم. وهذا ما يفسّر اختلاف خطاباتهم مع الله سبحانه، إذ نجد أن قضية واحدة يختلف بيانها من نبيّ إلى آخر عندما يتكلم بها مع الله (عزّ وجلّ)، حيث يعود هذا التفاوت في كيفية التعامل مع الحق (سبحانه وتعالى) إلى التفاوت الحاصل في درجات معرفتهم به (عزّ وجلّ). فإن معرفة المخاطَب، لها دور كبير في كيفية صياغة الخطاب وكيفية بيانه. فلو علم الإنسان مثلاً أنّ المخاطب هو إمامه المعصوم وأراد أن يتكلم معه بقضية ما، فسوف يكون خطابه مختلفاً عمّا إذا تكلّم في القضية نفسها مع إنسان آخر.

لنأخذ لذلك مثالاً قرآنياً يبيّن لنا اختلاف حالات الخطاب مع الباري تعالى من شخص إلى آخر. قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا﴾[1].

في حدود ما توحي به معالم هذه اللوحة التي يرسمها القرآن

---

(١) مريم: ١٧- ١٨.

الكريم عن حالة مريم (عليها السلام) عندما تمثّل لها ذلك الملك بشراً سوياً، نجدها (عليها السلام) قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾. والظاهر من سياق هذه العبارة أنها عندما تكلمت مع الحق (سبحانه وتعالى)، أثبتت لنفسها شيئاً من «الأنية» بإزائه (عزّ وجلّ). بعبارة أخرى، يوحي الخطاب أنها رأت لنفسها وجوداً بإزاء الله سبحانه.

لكن الأمر سيختلف تماماً وتتبدّل معالم اللوحة وإيحاءاتها، حينما نجد في سورة يوسف (عليه السلام) نوعاً آخر من أدب الخطاب مع الحق تعالى. قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

من الواضح أنّ هذا النوع من الخطاب معه تعالى يختلف عمّا سمعناه في سورة مريم (عليها السلام)، فيوسف الصديق لم يتفوه بكلمة «إني» عندما واجه الحالة المذكورة، بل كلّ ما قاله هو: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ فقط. وهذا ناشئ من أنّ النبي يوسف (عليه السلام) لم يكن يرى لنفسه «إنّية» تذكر بإزاء خالقه (عزّ وجلّ)، وذلك بمقتضى مقامه الوجودي كنبي من الأنبياء ومقدار ما يحظى به من معرفة.

فمريم (عليها السلام) تتكلّم مع الله تعالى بخطاب خاص، ويوسف (عليه السلام) يتكلم بخطاب آخر، وهكذا تتوالى المشاهد وتختلف الإيحاءات

---

(١) يوسف: ٢٣.

حتى نصل إلى خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله) فلا نراه يتكلّم مع الحق تعالى أساساً، بل نجد أن الله (سبحانه وتعالى) يأخذه إليه. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[2].

يملي هذا الأدب الخطابي الذي يطرحه القرآن الكريم ضرورة التدبّر بكل الصيغ التعبيرية الواردة على لسان الأنبياء (عليهم السلام) في الآيات القرآنية، لأن مداليل هذه التعبيرات تكشف عن درجات معرفتهم بالله (عزّ وجلّ).

هذا البعد من حياتهم (عليهم السلام) يُبيّن كيف يتعلم الإنسان آداب العبودية مع خالقه، وكيف يقوم بصياغة خطابه معه سبحانه. وفي أشعة النور التي تنطلق من هذا البعد تتجلّى عظمة العبارات الواردة في حق أهل البيت (عليهم السلام)، كالعبارة التي تقول: «**من عرفكم فقد عرف الله، ومن جهلكم فقد جهل الله**»[3].

معنى ذلك في ضوء النتائج الطبيعية للبحث أن من لا يعرف أهل

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) النجم: ٨- ١١.

(٣) ورد ذلك في الزيارة الجامعة المروية عن الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام).

البيت (عليهم السلام)، فلن يكون له بالضرورة طريق آخر يوصله إلى المعرفة الحقيقية بالله (عزّ وجلّ).

المقدّمة السادسة: تفاوت الخطاب مع الله ومع الناس

من النتائج التي يخرج بها البحث على ضوء ما مرّ، أنّ أسلوب كلام الأنبياء (عليهم السلام) مع الحق (سبحانه وتعالى) يختلف عن أسلوب كلامهم وطريقة خطابهم مع الناس، ولذا قرّر أهل المعرفة بأن الطريقة المثلى في التعرّف على الأنبياء (عليهم السلام) هو الوقوف على معرفة طريقة كلامهم مع الله (عزّ وجلّ)، وليس من خلال طريقة كلامهم مع الناس. أما منشأ هذا الاختلاف بين الطريقتين فيعود إلى أن الأنبياء (عليهم السلام) حينما يكلمون الناس العاديين، فإنهم يراعون أوضاعهم النفسية وقدراتهم المعنوية بمقتضى ما أمروا به من أن يكلموا الناس على قدر عقولهم[1]، لكنهم عندما يكلمون الحق تعالى في مناجاتهم وطيّات دعائهم فإنهم حينئذ يذكرون ما هو حق لله عليهم ويصرحون بموقعهم الحقيقي في قبال الحق (عزّ وجلّ)؛ هذا الموقع الذي لا يرى فيه الأنبياء (عليهم السلام) لأنفسهم شيئاً أساساً.

---

(١) ورد في كتاب سفينة النجاة للمحدث الشيخ عباس القمي (رضي الله عنه) في مادة «عقل» عن الصادق (عليه السلام): «ما كلم رسول الله (صلي الله عليه وآله) العباد بكنه عقله، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»: ج٢، ص٢١٤، طبعة النجف الأشرف.

على ضوء هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يفهم ما ورد عنهم (عليهم السلام) في بيان كلا الحالين المذكورين.

فتارة نرى الإمام الحسين (عليه السلام) يقول في دعائه: (أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي)[١].

وأخرى نسمع الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو يكلم الناس قائلاً: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض، قبل أن تشغر برجلها فتنة تطأ في خطامها، وتذهب بأحلام قومها»[٢].

فهم (سلام الله عليهم) حينما ينسبون أنفسهم الشريفة إلى باقي الناس فإنهم يملكون شيئاً كثيراً في قبالهم، أمّا حينما ينسبون أنفسهم إلى الحق (سبحانه وتعالى) ويتكلمون في ساحته المقدسة فإنهم لا يرون لأنفسهم شيئاً في قباله تعالى.

ربما يؤدي عدم الالتفات إلى هذين الحالين والتمييز بينهما بشكل دقيق، إلى التوهم بأن هناك تهافتاً في كلماتهم (عليهم السلام).

من خلال الوقوف على معرفة البعد العملي في حياة الأنبياء (عليهم السلام) يقف الإنسان على كيفية خطابهم مع الله (سبحانه وتعالى)، وبذلك

---

(١) من دعائه (عليه السلام) في يوم عرفة.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

سوف يتعلم منهم ماذا يطلب من الله (عزّ وجلّ) في دعائه، وما ينبغي له أن يمتنع عنه ولا يطلبه منه تعالى، لأن الإنسان لا يعلم أين تكمن مصلحته الحقيقية بالضبط، وذلك تبعاً لمحدودية إدراكاته وتناهي قدراته النفسية وتوجهاته الفكرية. ومع الانغمار في نسيم ساحة القدس الإلهي التي يصطف فيها أنبياء الله تعالى ورسله (عليهم السلام) نرى أيضا بماذا كلم الله (عزّ وجلّ) أعز خلقه وأشرفهم عنده، وبماذا أمرهم وعن ماذا نهاهم؟ فإنهم عباده المخلصون الذين استخلصهم لنفسه واصطفاهم بعلمه، وجعلهم بذلك حججاً على خلقه ومناراً لعباده.

سيراً على هدي ما سلف يمكن أن يتتلمذ الإنسان في حلقات المدرسة الشامخة التي شيّد أركانها وأسس معالمها، معلّمو الإنسانية وقائدو ركبها نحو الكمال المطلق.

فتعال أيها الإنسان المؤمن واستمع إلى ما يتحدث به القرآن الكريم حول ما حدث مع نبيّ الله نوح (عليه السلام)، هذا النبي الذي هو أحد أنبياء أولي العزم (عليه السلام) والذي قال تعالى في حقه: ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[1]. يقرّر القرآن الكريم بأنّ هذا النبي العظيم قد ابتلي بذرية ليست من الصلاح في شيء وتبعاً لذلك فقد نأت النبوّة وانتقلت الرسالة الإلهية عن ذريته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

---

(١) الصافات: ٧٩.

صَالِحٍ﴾[١].

بيد أنّ المشهد يختلف مع نبيّ آخر هو من أولي العزم أيضاً حيث نجده منتبهاً إلى ما حدث مع نوح (عليه السلام)، هذا النبي هو الخليل إبراهيم (عليه السلام). يرى إبراهيم (عليه السلام) أنّ ما حدث مع أخيه نوح (عليه السلام) في مسألة ذريته غير الصالحة وعدم بقاء النبوّة فيها، يمكن أن يكون درساً يتكرر معه هو (عليه السلام). ولذلك لم نجد مورداً في القرآن الكريم يطلب فيه إبراهيم (عليه السلام) شيئاً لنفسه إلا وطلب ذلك الشيء لذريته أيضاً، فعندما توجه لله تعالى بالإمامة وجعله سبحانه للناس إماماً نجد أنه طلبها لذريته أيضا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٣].

يفيد هذا المنهج الذي سار عليه إبراهيم (عليه السلام) في أسلوب طلبه من الله (عزّ وجلّ) أنّ النبوّة والإمامة قد استمرت في ذريته ولم تنتقل عنها، على ما نطقت به السماء. يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي

---

(١) هود: ٤٦.

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) البقرة: ١٢٨.

عَقِبِهِ﴾[١].

في السياق ذاته يعرض لنا القرآن الكريم درساً آخر في أسلوب الأدب الذي أدّب الله به أنبيائه (عليهم السلام)، وذلك عندما نسمع أنّ الله (عزّ وجلّ) يخاطب خاتم أنبيائه (صلى الله عليه وآله): ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٢].

من هو صاحب الحوت؟!

إنه نبيّ من الأنبياء، ولكن ما العمل الذي قام به لكي ينهى الله تعالى خاتم أنبيائه وسيّد رسله (صلى الله عليه وآله) عن الإتيان بمثله؟

إنه دعا على أمته، والدعاء على الأمة لا يتلاءم مع مقام الخاتمية المتمثل بالنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، كيف وهو المبعوث رحمة للعالمين؟

بل نجد أنّ النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) حينما يقع عليه الأذى - وأي أذى- من أمته فإنه لا يدعو عليهم، بل كان يدعو لهم، وتتفجر ينابيع الرحمة في ثنايا نفسه المقدسة حينما نسمعه يقول: «اللهم ارحم قومي فإنهم لا يعلمون»[٣]. بل إن هذا الدعاء لأمته المرحومة لا يقتصر

---

(١) الزخرف: ٢٨.

(٢) القلم: ٤٨.

(٣) ورد في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود، قال: «لمّا قسم رسول الله غنائم حنين بالجعرانة ازدحموا عليه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن عبداً من عباد الله بعثه إلى قومه فضربوه وشجوه، قال: فجعل يمسح الدم عن جبهته، ويقول: رب اغفر لقومي إنهم لا يعلمون، قال عبد الله: كأني أنظر إلى رسول الله (صلى الله عليه

على عالم الدنيا وإنما يتعدّى حدودها ليصل إلى عالم الآخرة أيضاً عندما نسمع أن النبي (صلى الله عليه وآله) ينادي يوم القيامة بنداء «**وا أمّتاه**»[(١)] !!

المقدّمة السابعة: المنهج القرآني في البحث حول الأنبياء

تتّضح معالم المنهج القرآني في الحديث عن الأنبياء (عليهم السلام)، من خلال المستويين التاليين:

الأول: البحث عن مسائل الأنبياء (عليهم السلام) بشكل عام. ونعني به عرض القوانين أو القواعد العامّة التي يشترك فيها الأنبياء جميعاً، من قبيل مسألة العصمة، أو أن كلّ نبيّ يرسله الله تعالى فإنه يرسله بلسان قومه، أو الشهادة على الأعمال يوم القيامة. ومن الواضح أنّ هذه وأمثالها مسائل عامة لا تختص بنبيٍ دون آخر، وهذا ما نصطلح عليه ببحث «النبوّة العامّة».

الثاني: البحث عن القضايا أو المسائل الخاصّة بكل نبيّ على حدة.

وآله) يمسح الدم عن جبهته يحكي الرجل ويقول: رب أغفر لقومي أنهم لا يعلمون». راجع مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص٤٥٦.

(١) يذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّ عنقاً من النار يحيط الخلائق يوم القيامة: «البر منهم والفاجر، فما خلق الله (عز وجل) عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً إلا نادى: ربّ نفسي نفسي! وأنت [والكلام لجبرائيل يرويه النبي] يا نبي الله تنادي: أمتي أمتي». يلاحظ الخبر بطوله، في: بحار الأنوار، ج٧، كتاب العدل والمعاد، أبواب المعاد، باب٦، ص١٢٥- ١٢٦.

ونعني بذلك أنّ القرآن الكريم تعرض لذكر الخصوصيات التي يمتاز بها بعض الأنبياء (عليهم السلام) بشكل خاص، حيث يتبيّن من خلال ذلك لماذا صار بعضهم من أولي العزم، ولماذا لم يكن للآخر عزم[١]، ولماذا ابتلي بعضهم بكلمات دون بعضهم الآخر[٢]، وهكذا في هذه المستوى من البحث لابدّ من الوقوف على هذه الخصوصيات بشكل مفصل ودقيق، لأنها ترتبط بمدى معرفتهم بالله سبحانه وتعالى كما ذكرنا. هذا المستوى من البحث هو ما تطلق عليه أدبيات البحث العقائدي بـ«النبوّة الخاصّة».

تأسيساً على هذا المنهج سوف يدور الحديث عن النبوّة في القرآن الكريم، انطلاقاً من هذين المستويين من البحث.

من أهم المسائل التي ترتبط ببحث النبوّة العامّة هي مسألة عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في القرآن الكريم، فهذه المسألة تعدّ من أمّهات المسائل التي تكون محوراً أساسياً في بحث النبوّة، وسوف يتّضح مدى الأهمية البالغة والآثار الكبيرة التي تمثلها هذه المسألة ضمن المنظومة العقائدية للإنسان المسلم. وهذا ما يفسّر لنا تركيز الدراسة على عصمة الأنبياء في القرآن، أكثر مما سواها.

الخلاصة

١. القرآن الكريم هو مصدر معرفة الأنبياء، فقد أولى عناية كبيرة

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥).

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٢٤).

بقصصهم وحياتهم وحالاتهم وأسئلتهم وأدعيتهم وما مروا به وواجهوه، ممّا له صلة بشأنهم في الهداية، فقصصهم أحسن القصص وهي عبرة لأولي الألباب. وهذا كله يملي العودة إلى القرآن كمصدر أساسي لمعرفة ما يرتبط بهم، بما في ذلك عصمتهم التي يدور من حولها البحث في هذا الكتاب.

٢. مثلما تنطلق هذه الدراسة من القرآن كمصدر أساسي لبحث عصمة الأنبياء، فإنها أيضاً تنطلق من مبدأ الخلافة الربانية للإنسان في تأسيس رؤيتها وصياغة وعيها بموقع الأنبياء في الوجود. فالإنسان يحظى بموقع وجودي فذّ، وقد وُجد في هذه الدنيا لا ليبقى فيها، بل ليعود إلى الله ويصعد للقائه سبحانه عبر خط الكدح والعبادة.

بديهي أنّ الله سبحانه قريب إلى الإنسان في كلّ لحظاته وأطواره، لكن الإنسان هو الذي ينفصل عن ربه ويتباعد عنه بحُجبه وغفلته وسيئات أعماله. وطريق الأوبة إلى الله يكون بالعبودية الحقيقية التي لا تكون إلا بالمعرفة، والمعرفة تتحقّق عبر الأنبياء والأوصياء ومن خلالهم.

٣. حين يكون للأنبياء هذا الدور الرئيسي في سوق الإنسان نحو الله سبحانه، فستتوقف صلته بالله على معرفة حقيقة الأنبياء سلباً وإيجاباً، فكلما كانت المعرفة بهم أفضل صارت المعرفة به كذلك، والعكس بالعكس.

صحيح أن كلّ شيء في الوجود آية دالة عليه سبحانه، وكل شيء مزود بسبيله الخاص للهداية، إلا أن الصحيح أيضا أن الأنبياء هم من

أكبر الآيات ومن أعظم مظاهر أسمائه وصفاته في دلالتهم عليه سبحانه، وإنّ قانون هداية الإنسان يرتبط وجودياً بهداية الأنبياء وأوصيائهم، ومن ثم فإن معرفتهم والارتباط بهم، هي من معرفة الله والارتباط به بالصميم.

٤. يتفاوت الرسل الكرام في درجات الكمال المعرفية والعملية، وأفضلهم أولو العزم، وأفضل الجميع هو خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله). ومن ثم فإن التمسك به يوفّر للإنسان أفضل السُبل لمعرفة الله، والارتقاء إليه عملياً، والدين الذي جاء به وشريعته تمثل أكمل منهاج يحقّق للإنسان الغاية من وجوده.

هذه مقدمات استوفاها البحث مع ما يرتبط بها من تفاصيل، عبر القسم الأول من الكتاب، ليسوّغ عموماً سبب دراسة الأنبياء، ودواعي اللجوء إلى منهج القرآن نفسه في دراستهم، ويهّيئ عبر ذلك كلّه عقل القارئ للانتقال إلى مبحث العصمة.

٥. تبقى نقطة أخيرة أشارت إليها مقدمات القسم الأول، تمثلت بما نبّهت إليه من أنها تتوفّر على دراسة العصمة جزءاً من بحث النبوّة العامّة. فالنبوّة العامّة تدرس الظاهرة النبوية عبر القوانين العامّة التي تنظمها ومن خلال القوانين الكلّية التي تؤطّرها، بعيداً عن خصوصيات هذا النبي أو ذاك، والعصمة هي واحدة من قوانين النبوّة العامّة، ومن ثم فإن الدراسة تتعامل معها من هذا المنطلق، وليس من منطلق عصمة نبيّ بعينه.

القسم الثاني

مراحل العصمة وطرق إثباتها

تمهيد

يقع الحديث عن العصمة في ضوء مسائل النبوّة العامّة؛ وهي مجموعة القضايا التي يشترك فيها الأنبياء (عليهم السلام) جميعاً.

وتقف مسألة العصمة في الصف الأول من مسائل النبوّة العامّة، لما لها من آثار مهمّة وثمرات أساسية في عقيدة الإنسان المسلم.

فالعصمة عندما تثبت لإنسان ما، فهذا يعني ثبوت مجموعة من الآثار واللوازم تبعاً لثبوت العصمة نفسها، كأن تكون أفعاله وأقواله حجّة على الآخرين، أو إمكان اتخاذه قدوة وأسوة لهم في كلّ شيء، وغير ذلك من الثمرات المتفرّعة عن مسألة العصمة.

للوهلة الأولى قد يوحي المنهج القرآني في البحث عن عصمة الأنبياء، أن القرآن الكريم قد عرض في بعض آياته نسبة المعصية لبعض الأنبياء (عليهم السلام)، فقال تعالى: ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، إلى

---

(١) طه: ١٢١.

غيرها من الآيات التي توهم بأن ما صدر من الأنبياء (عليهم السلام) من أفعال لا ينسجم مع عصمتهم.

إلا أنّ القرآن الكريم يعود من جهة أخرى ليقرّر ثبوت العصمة المطلقة لهم (عليهم السلام)، من خلال آيات كثيرة سوف نمُر عليها مفصلاً في اللاحق من فقرات هذا البحث إن شاء الله.

وفي الحديث عن عصمة الأنبياء (عليهم السلام) ينبغي أن يتم الفهم الصحيح لهذه الآيات الكريمة جميعاً، بما ينسجم مع عصمتهم ويتوافق مع ما يتمتعون به من مقام شامخ في القرب من الله (جلّ جلاله).

وبذلك سيمضي البحث في هذه المسألة منصبّاً على إثبات أصل العصمة عند الأنبياء (عليهم السلام)، من دون أن يتم التطرق إلى درجات العصمة وأنها تتفارق من نبيّ إلى آخر، لارتباط هذه الفكرة الأخيرة بأبحاث النبوّة الخاصّة.

العصمة فكرة قرآنية

قد يُدّعى أن العصمة والبحث عنها من خلال المنهج المذكور ليست من الأفكار التي طرحها القرآن الكريم، بل هي مسألة ترجع في جذورها إلى الاختلافات التي نشبت بين علماء الكلام في المسائل الاعتقادية.

وفي ضوء هذه الدعوى نستطيع أن نقرّر بأن الأمر ليس كما ذُكر، إذ يكفي في ردّها القول بأن القرآن الكريم قد صرّح بمسألة العصمة ونصّ عليها في غير مورد. قال تعالى: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١].

هذه الآية الكريمة وإن كانت تتحدث عن عصمة الملائكة وليس عصمة البشر، إلا أنها تكفي لإثبات قرآنية فكرة العصمة بشكلٍ عام بغضّ النظر عمّن يكون هو المعصوم؟

قال تعالى أيضاً: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[٢].

العصمة في ضوء المعنى اللغوي

حينما يتعرض اللغويون لبيان حقيقة العصمة، فإنهم يأخذون في حقيقتها معنى «الامتناع».

جاء في «مقاييس اللغة»: «عصم، أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع»[٣].

وجاء في «لسان العرب»: «عصم، العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه، عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه»[٤].

لذا نجد أن كلّ من تعرض لتعريف العصمة فقد أخذ فيها معنى

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) يوسف: ٣٢.

(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة: ج٤، ص٣٣١.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة «عصم»: ج١٢، ص٤٠٣.

الامتناع والإمساك.

قال السيد المرتضى (قدّس سرّه): «العصمة هي اللطف الذي يفعله تعالى فيختار العبد عنده الامتناع عن القبيح»[١].

وقال ابن أبي الحديد في «شرح النهج»: «قال أصحابنا: العصمة لطف يمنع المكلف من القبيح اختياراً»[٢].

وبذلك يكون المعصوم هو من يمتنع عن المعصية ويمسك عن الذنب، بل عن الخطأ والاشتباه أيضاً كما سيتّضح في محلّه[٣].

مراحل العصمة

من المسائل التي ترتبط بمسألة العصمة على نحو مباشر، هو أنّ العصمة لها مراحل متعدّدة، ومن ثم ينبغي لمن يبحث في العصمة أن يقيم الدليل على عصمة المعصوم في هذه المراحل جميعاً.

وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى: وهي التزام الإنسان بجميع الأوامر والنواهي الإلهية، وهذا يعني أنه لا يترك واجباً، وان لا يفعل محرماً مطلقاً.

المرحلة الثانية: وهي العصمة في تلقّي الوحي من الله (سبحانه وتعالى)،

---

(١) الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة: ج١، ص٢٩٥.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج٧، ص٨.

(٣) راجع للوقوف على تعاريف العصمة كتاب «العصمة»: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني، محاضرات السيّد كمال الحيدري، بقلم السيّد محمّد القاضي.

والعصمة في حفظه وإبلاغه إلى الناس. وبذلك ستكون هذه المرحلة من مقاطع ثلاثة، **الأول**: هو حفظ المعصوم من الخطأ والاشتباه حينما ينزل الوحي على قلبه، **والثاني**: هو حفظ ما نزل عليه وبقاؤه في قلبه كما هو، **والثالث**: هو حفظ المعصوم من الخطأ والاشتباه حينما يبلّغ ما نزل عليه إلى الناس.

المرحلة الثالثة: وهي عصمة النبي في تطبيق الشريعة في حياة الناس. وفي ضوء هذه المرحلة فمن غير الممكن أن يخطئ المعصوم مثلاً في تطبيق الحدود والتعزيرات، أو يخطئ في تطبيق الوحي على نفسه كأن يصلي الفجر ثلاث ركعات بسبب السهو والغفلة مثلاً[1].

فالنبي لابدّ أن يكون معصوماً في هذه المراحل جميعاً.

المرحلة الرابعة: وقد تكون هناك مرحلة رابعة للعصمة ينبغي إثباتها والتعرّض لها، وهي عصمة النبي أو الإمام في مسائل حياته الاعتيادية، كما لو سئل المعصوم عن الشخص القادم من مسافة بعيدة، فهل يمكن أن يخطئ في تشخصيه أم هذا ممّا لابدّ أن يكون معصوماً فيه أيضاً؟

في ضوء المنهج القرآني في البحث عن عصمة الأنبياء (عليهم السلام) نجد أن القرآن الكريم قد تعرّض لمراحل العصمة بأجمعها، وسوف

---

(١) إنما تعرضنا لهذه الأمثلة من السهو والخطأ لأن العلماء قد اختلفوا في إمكان صدور ذلك من النبي (صلى الله عليه وآله) وعدمه.

نتطرق لذلك من خلال البحث في مجموعة من الطرق القرآنية لإثبات عصمة الأنبياء (عليهم السلام).

أمّا من حيث خطوات التنفيذ أو المنهج العملي لتغطية مراحل العصمة الأربع، فسنخصص لكل مرحلة بحثاً مستقلاً يتوفر على بيان المقصود من العصمة في تلك المرحلة، واستقصاء الأدلة القرآنية التي تثبتها، مع ذكر الآثار المترتبة عليها، وما يتصل بها من تفاصيل أخرى.

البحث الأول

العصمة في الواجب وترك المحرمات

يتناول البحث المرحلة الأولى من العصمة، متمثلة بالتزام المعصوم بجميع الأوامر والنواهي الإلهية، على النحو الذي لا يتخلّف عن واجب ولا يجترح محرماً مطلقاً.

إثبات العصمة على هذا المستوى يمكن أن يتمّ بعدد من الطرق، هي:

الطريق الأول: الصراط المستقيم

يُثبت هذا الطريق أن كلّ الأنبياء (عليهم السلام) معصومون بالعصمة المطلقة بجميع مراحلها المتقدمة، وذلك ما سنحصل عليه بالاستناد إلى حقيقة أن كلّ الأنبياء (عليهم السلام) هم على الصراط المستقيم.

سلفت الإشارة أنّ الإنسان لم يُخلق في هذا العالم عبثاً من دون هدف وغاية، بل خلق لأجل هدف معين وهو الرجوع إلى الله تعالى

والصعود إليه. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[١].

على هذا الضوء ينفتح عند الإنسان السؤال عن الطريق الصحيح الذي حدّده الله (عزّ وجلّ) لغرض الوصول إلى الهدف المذكور، وبدوره عرض القرآن الكريم لبيان معالم هذا الطريق وحدوده، حينما سمّى هذا الطريق الخاص بـ«الصراط المستقيم» حيث إنّ الصراط المستقيم هو السبيل الوحيد الذي ينتهي بمسيرة الإنسان عند الله (عزّ وجلّ)، فنرى أنّ المسلم يردّده في صلاته لمرّات عديدة في اليوم الواحد ويقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٢].

وهذا يعني أنّ الطرق لو كانت على حدّ سواء في الوصول إليه تعالى، فلا يبقى حينئذ معنى لأن ندعوه بأن يهدينا الصراط المستقيم.

ومن هنا فلم يذكر القرآن الكريم الصراط المستقيم بصيغة الجمع إطلاقاً، فهذا الصراط واحد لا يتعدّد.

نعم ورد في القرآن الكريم أن السبل إليه تعالى متعدّدة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[٤].

إلا أنّ هناك فرقاً بين «الصراط» وبين «السبيل»، فقد يكون السبيل

---

(١) العلق: ٨.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) العنكبوت: ٦٩.

(٤) الأنعام: ١٥٣.

ممدوحاً تارة ومذموماً أخرى لأنه متعدّد، أما الصراط فهو ليس كذلك لأنه ممدوح مطلقاً لجهة أنه واحد لا يتعدّد.

مادام الأمر كذلك، فما هو هذا الصراط المستقيم؟ ومَن الذي يبيّن لنا حقيقته؟

في سياق الإجابة على هذا السؤال ينصّ الله تعالى في كتابه الكريم، على أنّ الصراط المستقيم هو الدين الإلهي. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

فطريق الصعود إلى الله تعالى والرجوع إليه منحصر في سلوك الصراط المستقيم، ومن المعلوم أن سلوك الصراط المستقيم لا ينسجم مع أي نوع من أنواع المعاصي وأشكال الانحرافات. وهذا يعني أن ارتكاب المعصية يلازم دائماً مجانبة الصراط المستقيم لا محالة.

الهداية والضلال في ضوء الصّراط المستقيم

يقرّر القرآن الكريم في غير واحد من نصوصه المباركة أنّ الهداية لا تتحقق إلا بسلوك الصراط المستقيم، وأنّ الإنسان «المهدي» هو خصوص من سلك هذا الطريق.

معنى ذلك أنّ من ينحرف عن هذا الطريق سيكون «ضالاً» لا محالة، وبذلك يجعل القرآن الكريم من الهداية والضلال شيئين

---

(١) الأنعام: ١٦١.

متقابلين. قال تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٣].

على هذا الأساس فمن كان مهتدياً فهو ليس بضال، والعكس بالعكس.

على ضوء ما تقرّره الآيات السابقة من معنى الهداية والضلال، يمكن أن يُثار السؤال الآتي: من تصدر منه المعصية هل هو ضالٌ أم مهتد؟ الجواب: إنّ مثل هذا الإنسان لا يخرج عن دائرة الضلال بكل تأكيد سواء أكان ذنبه صغيراً أم كبيراً، بل إنه يبقى في محيط هذه الدائرة وإن صدر هذا الفعل منه على نحو السهو أو الخطأ والاشتباه.

وهذا يعني أن القيام بأي عمل لا ينسجم مع الصراط المستقيم سوف يلقي بالإنسان في دائرة الضلال سواء كان القيام بذلك العمل عمداً أم سهواً. أجل، يمكن أن تفترق حالة العمد عن حالة السهو من جهة استحقاق العقاب وعدمه، وهذه مسألة أخرى غير ما نحن بصدد البحث عنه من معنى الهداية والضلال.

---

(١) الأنعام: ١٤٠.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) المائدة: ١٠٥.

من هذا المنطلق سوف لا يخرج أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام أو لا يؤمنون بولاية أهل البيت (عليهم السلام) عن دائرة الضلال حسب المنطق القرآني. أجل، بالنسبة إلى العقاب أو العذاب على هذا الضلال، فهذه مسألة ترتبط بحال الإنسان بين العمد والسهو، وطبيعة سعيه وفيما إذا كان قاصراً أو مقصراً.

الحصيلة التي يقرّرها القرآن الكريم تتمثّل في أنّ من كان على الصراط المستقيم، لا يمكن أن يصدر منه ما يخالف أمر الله (عزّ وجلّ) لا عمداً ولا سهواً، سواء أكان ذلك في إبلاغ الشريعة أو في تطبيقها وسواء أكان مما يختص بالرسالة الإلهية أو مما يختص بحياته الشخصية.

إذاً فمن يصفه القرآن الكريم بأنه على الصراط المستقيم سوف يكون معصوماً بالعصمة المطلقة ضرورة. ولذا يصف القرآن الكريم إبليس بـ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[1]، ذلك أن الشيطان يعمل على انحراف الإنسان عن صراط ربه المستقيم. قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[3].

---

(١) القصص: ١٥.

(٢) النساء: ٦٠.

(٣) يس: ٦٢.

سيراً على ما تقرّر من معنى «الصراط المستقيم»، لنقف على ضفاف القرآن الكريم ونرى ماذا يقول في حق الأنبياء (عليهم السلام) حول هذه المسألة؟

قال تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [1]، فهل يمكن - في ضوء هذا التقرير الإلهي والأسلوب القرآني الرائع- أن نتصور سهو النبي (صلى الله عليه وآله) في صلاته، أو صدور خطأ في أفعاله وبياناته التبليغية أو كونه يشتبه عليه الحق في حياته الاعتيادية؟!

كيف يمكن ذا والقرآن يقرّر بأنه على الصراط المستقيم؟!

لو أخطأ النبي (صلى الله عليه وآله) أو عصى - والعياذ بالله- فسيكون على الصراط تارة وعلى الضلال أخرى، وهذا ما ينافي نداء القرآن الذي يقرع الأسماع ويخاطب العقول بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2] دائماً وأبداً.

على أنّ حقيقة الكون على الصراط المستقيم غير مختصة بخاتم النبيين (صلى الله عليه وآله)، بل إنّ الأنبياء (عليهم السلام) جميعاً على الصراط المستقيم كما يقرّر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *

---

(١) يس: ١- ٤.

(٢) الزخرف: ٤٣.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

فهل يبقى في النفس صدى للريب في عصمة الأنبياء (عليهم السلام) بعد الاستماع إلى هذه الآية المباركة؟! بخاصّة عندما نسمع قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

فكيف يصدِّق العقل بأن هدى الله ينسجم مع المعصية أو يتلاءم مع الخطأ والنسيان وغيرها من المعاني كالغفلة والسهو؟

ثم يقول تعالى بعد ذلك أيضاً: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

وهذا من القواعد المرتبطة ببحث النبوّة العامّة، فما من نبيّ إلا ويقول: إن أجري إلا على الله، إلا خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله) فإنه يقول: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[4].

وسنقف لبيان هذه النكتة مفصلاً في محله.

---

(١) الأنعام: ٨٢- ٨٧.

(٢) الأنعام: ٨٨.

(٣) الأنعام: ٩٠

(٤) الشورى: ٢٣.

فالأنبياء (عليهم السلام) قائدو ركب الإنسانية في طريق الوصول إلى الله (سبحانه وتعالى)، قد هداهم الله (عزّ وجلّ) وعصمهم من الضلال وآمنهم من الانحراف، بوضعهم على الصراط المستقيم. ولا يمكن لأيّ كائن مهما كان شأنه أن يضلّهم أو يحرفهم عن الصراط حينئذ.

يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾[1].

على هذا الضوء نجد أن الشيطان حينما أقسم أمام الحق (سبحانه وتعالى) على إضلال الناس أجمعين، قد استثنى من هذا القسم عباد الله المخلصين، فإن إبليس لا سلطان له على أمثال هؤلاء العباد.

لنبق مع القرآن الكريم نستوحيه، نستنطقه وننتهل من معينه الصافي لإطفاء ظمأ القلوب التي تخفق بحب الأنبياء (عليهم السلام) وتبحث عمّن يتحدث عنهم، فهل من حديث آخر عن الصراط المستقيم؟

لنتأمّل في هذه اللوحة التي يرسمها القرآن الكريم عن كون الأنبياء على الصراط المستقيم من خلال أسلوب آخر. يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾[2].

فالأنبياء إذاً هم من الذين أنعم الله عليهم. ولكن مَن هم الذين أنعم الله عليهم؟ لنعد إلى سورة الفاتحة، وبالتحديد قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ

---

(١) غافر: ٣٣.

(٢) النساء: ٦٩.

الضَّالِّينَ﴾[١].

بضمّ هاتين الآيتين إلى الآية الأخرى المذكورة آنفاً نستنتج أنّ جميع الأنبياء على الصراط المستقيم أيضاً.

شبهة وجواب

إذا كان القرآن الكريم يتحدث عن الأنبياء بهذه الصورة وأنهم جميعاً على الصراط المستقيم الذي لا انحراف معه ولا ضلال فيه. فكيف نفهم ما يقرّره القرآن الكريم في آيات أخرى من نسبة المعصية والذنب إلى بعض الأنبياء (عليهم السلام)؟ كقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٣].

للإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الالتفات إلى مسألة في غاية الأهميّة؛ هي أن القرآن الكريم يحتوي في آياته على المحكم والمتشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كلّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[٤].

---

(١) الفاتحة: ٦- ٧.

(٢) طه: ١٢١.

(٣) النساء: ١٠٦.

(٤) آل عمران: ٧.

مقتضى القواعد القرآنية في التعرّف على آيات كتاب الله (عزّ وجلّ) هو إرجاع المتشابه إلى المحكم، ومن الواضح أن الآيات التي دلت على عصمة الأنبياء (عليهم السلام) جميعاً من خلال كونهم على الصراط المستقيم هي من الآيات المحكمة، وأما الآيات الأخرى التي يظهر منها خلاف ذلك فهي من المتشابهات، وينبغي حسب المنهج القرآني الصحيح أن نفهم الآيات المتشابهة في ضوء ما تقرّره الآيات المحكمة، تماماً كما نفهم قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1] في ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[2].

مادام الأمر كذلك فليس من الصحيح إذاً أن نفهم متشابه القرآن الكريم بصورة مستقلة أو مقتطعة عن محكماته، وإلا سيكون من الآثار المترتبة على هذا المنهج الخاطئ في فهم كتاب الله (عزّ وجلّ)، أننا نرى أن الجميع يستدل بالقرآن الكريم لإثبات أقوال متناقضة!! وهذا مما نهى عنه القرآن بشكل لا لبس فيه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾[3].

الطريق الثاني: الإخلاص والاجتباء

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنْ

---

(١) المائدة: ٦٤.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) آل عمران: ٧.

الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[١].

يتكفل هذا الطريق إثبات العصمة المطلقة للأنبياء (عليهم السلام) من خلال ما يقرّره القرآن الكريم من أن الأنبياء (عليهم السلام) هم «مخلِصون» و«مخلَصون» أيضاً.

تبرز أول حلقة في هذا الطريق بمعرفة المعنى المراد من «الإخلاص» لغةً واصطلاحاً وقرآناً، ليتّضح بعد ذلك كيفية دلالة الإخلاص على ما نريده من إثبات العصمة المطلقة.

فمن حيث اللغة يقع «الخلوص» في قبال «الشوب». جاء في «لسان العرب»: «التخليص: التنجية من كلّ منشب، والمخلَص: الذي أخلصه الله جعله مختاراً خالصاً من الدنس، والمخلص: الذي وّحد الله تعالى خالصاً ولذلك قيل لسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص»[٢].

كما جاء في « التعاريف»: «الخلوص: تصفية الشيء مما يمازجه في خلقته مما هو دونه، والصفاء: هو الخلوص من الشوب، والاصطفاء: تناول صفو الشيء كما أن الاختيار تناول خيره، واصطفى الله عبده قد يكون بإيجاده إياه صافياً عن شوب الكدورات وقد يكون بتخليصه منها»[٣].

وجاء في «تفسير القرطبي» أيضاً: «اصطفينا أي اخترنا، واشتقاقه من

---

(١) ص: ٤٥- ٤٧.

(٢) لسان العرب: ج٧، ص٢٦.

(٣) المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمّات التعاريف: ج١، ص٣٢٦، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت.

الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر»[١].

إذاً، فالإخلاص يقابله الشوب، فكل شيء في نفسه لم يمتزج بغيره يسمى «خالصاً». وقد ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) في الحديث الذي يبيّن فيه جنود العقل والجهل، أنه قال: «اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا». وأخذ الإمام (عليه السلام) يذكر جنود العقل والجهل إلى أن قال: «والإخلاص وضده الشوب»[٢].

في الاتجاه ذاته قال الفيض الكاشاني في بحثه عن النية والإخلاص: «أعلم أن كلّ شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوب الغير وخلص عنه سمّي خالصاً، وسمّي الفعل المصطفى المخلص إخلاصاً، قال تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث وعن كلّ ما يمكن أن يمتزج به»[٣].

علماً أن الشوب قد يكون جلياً واضحاً، وقد يكون خفيّاً غامضاً، وهو ليس على درجة واحدة، وكذلك الإخلاص فإن له درجات متفاوتة أيضاً.

---

(١) القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت:٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن: ج١٤، ص٣٤٧، ط٢، القاهرة، ١٣٧٢هـ تحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي: ج١، ص٢١- ٢٢، ط٦، دار الكتب الإسلامية.

(٣) الكاشاني، المولى محسن، المحجّة البيضاء: ج٨، ص١٢٨، ط٥، ١٤٢١هـ مؤسسة النشر الإسلامي.

والإخلاص والشوب هما وصفان للنيّة، وهي من الأمور الباطنية لأنها تقع في دائرة الأفعال الجوانحية كما هو واضح، وبذلك يكون الإخلاص والشوب من أفعال القلوب والجوانح أيضاً.

لكن ما هو معنى الإخلاص من وجهة نظر القرآن الكريم؟ حين نرجع إلى السيد محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٣هـ) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ نراه يكتب: «ولا شك أن الإخلاص في الدين إنما يتم على الحقيقة إذا لم يتعلّق قلب الإنسان بغيره تعالى»[١].

يترتب على المعنى الذي يطرحه القرآن الكريم للإخلاص، أن قلب الإنسان إذا تعلق بشيء غيره (سبحانه وتعالى)، فلا يكون هذا إيماناً خالصاً حينئذ، بل سيكون شوباً لا محالة، لأن حقيقة الإنسان إنما هي بفطرته التي فطره الله عليها، وهذه الفطرة هي التوحيد الذي نصّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ﴾[٢].

فأساس الإخلاص قائم على الفطرة التي هي التوحيد، وهذا يعني أن الإنسان مفطور على معرفة الحق (سبحانه وتعالى)، وحينئذ فلا يمكن أن لا يكون الإنسان محباً لله (عزّ وجلّ) أو أن يتعلق قلبه بغيره تعالى. ولو حصل حب الغير، فهو يدل على عدم معرفة الإنسان بربه.

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج٣، ص١٥٨.

(٢) الروم: ٣٠.

فقد يكون الإنسان محباً لشيء لذيذ ومتعلق القلب به، ولو وجد إنساناً آخر لا يحب ذلك الشيء، فإنه يقول بأنّ هذا الآخر لا يعرفه، وإلا لو عرفه لأحبّه. فلو أشرق قلب الإنسان بمعرفة الله (عزّ وجلّ) وامتلأت خبايا نفسه بمعرفة الأسماء الحسنى للحق (تبارك وتعالى)، لما كان من الممكن أن يتعلق قلبه بغيره تعالى. ولذا يعود الطباطبائي ليقرّر في بيان حقيقة الإخلاص، ما نصه: «إذا لم يتعلق قلب الإنسان بغيره تعالى، من معبود أو مطلوب كصنم أو ندّ أو غاية دنيوية، بل ولا مطلوب أخروي كفوز بالجنة أو خلاص من النار»[1].

بهذا النص الرائع الذي ينطلق من متبنيات المنطق القرآني في بيان حقيقة الإخلاص، يسمو الطباطبائي بأجنحة الإخلاص إلى حيث القدس الإلهي والحب الرباني الذي لا ينسجم مع طلب ما في الجنان أو الخوف من النيران، وفي ضوء المنهج القرآني تتجلّى حقيقة الإخلاص من أنّ الإنسان إذا أراد أن يكون مخلصاً - وكان مخلصاً في هذا الطلب- فلابدّ أن يجعل وجوده كله لله (سبحانه وتعالى).

حقيقة الإخلاص عند أهل المعرفة

يقرّر أهل المعرفة بأنّ الإخلاص على درجات متفاوتة، وفي هذا السياق يذكرون أنّ الإخلاص هو تصفية العمل من كلّ شوب، أي أن يخلص الإنسان في عمله لله (سبحانه وتعالى) حتى يصفو من كلّ شوب

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٣، ص١٥٨، مصدر سابق.

كالرياء والعُجب وغيرهما، وهو على درجات فالدرجة الأولى منه: إخراج رؤية العمل من العمل والخلاص من طلب العوض على العمل، والنزول عن الرضا بالعمل.

وفي ضوء هذه الدرجة لابدّ للإنسان العامل من عدم النظر إلى عمله، وعليه أن يخلّصه من طلب العوض والجزاء، وكيف يطلب عوضاً وهو لا يستحق على الله شيئاً؟!

وعليه أيضاً أن ينزل عن الرضا بعمله. لأنّ هذه الأمور تجعل العمل مشوباً غير خالص، وهذه أولى مراتب الإخلاص!!

ولعلّ الإخلاص بالمعنى المذكور لا يكون بعيداً عن معنى الطهارة، ولذا ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في ظلّ قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[1]، قال: «طهرهم عن كلّ شيء سواه إذ لا طاهرَ مَن تدنّس بشيء من الأكوان»[2].

الفرق بين المخلِص والمخلَص

لكي يكون الاستدلال على عصمة الأنبياء (عليهم السلام) من خلال الإخلاص تاماً، فلابدّ من التعرض بيان الفرق يبن «المخلَص» بالفتح وبين «المخلِص» بالكسر.

«المخلَص» هو صيغة اسم المفعول، أي أنّ الإخلاص - حسب ما

---

(١) الدهر: ٢١.

(٢) نقلاً عن التفسير للسلمي (ت٤١٢هـ) حقّقه الأب بوليس نويا.

تقتضيه هذه الصيغة- لم يصدر من الإنسان، ولم يكن الإنسان فاعلاً له، بل إنّ الإخلاص وقع على الإنسان، كما إذا أخلص الله (سبحانه وتعالى) عبداً من عباده، فنقول حينئذ إنّ هذا الإنسان «مخلَص».

أما «المخلِص» فهو صيغة اسم الفاعل، أي أنّ الإخلاص صدر منه، لا أنه وقعَ عليه. كما إذا أخلص الإنسان عبادته لله تعالى من الرياء والعجب وغيرهما.

على ضوء هذا التمايز بين المفهومين يعبّر القرآن الكريم عن الأنبياء (عليهم السلام) تارة بأنهم «مخلِصين» بالكسر، وهذا يعني أن أعمالهم كانت خالصة له (سبحانه وتعالى)، ويعبّر عنهم أخرى بأنهم «مخلَصين» بالفتح، وهو يعني أنه تعالى استخلصهم لنفسه، ولا وجود لشيء غيره (سبحانه وتعالى) في محوّطة وجودهم.

يكتب السيد الطباطبائي (قدّس سرّه): «إنّ المخلَصين هم الذين أخلصهم الله لنفسه، فليس لغيره (سبحانه وتعالى) فيهم شركة، ولا في قلوبهم محل، فلا يشتغلون بغيره تعالى»[1].

ما دمنا قد وقفنا على معنى «الإخلاص» وما تعنيه هذه الكلمة على ضوء الإطلاق القرآني، فينبغي أن نبحث أيضاً في معنى كلمة «الاجتباء» التي نصّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص١٦٥.

وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

قال الراغب في «المفردات» في مادة «جبي»: «يقال جبيت الماء في الحوض يعني جمعته، ومنه استعير جبيت الخراج، ومنه قوله تعالى: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢]، والاجتباء هو الجمع على طريق الاصطفاء، يصطفي ثم يجمعه لنفسه، فاجتباه ربه»[٣].

في سياق ما عرفناه حول معاني الإخلاص والخلوص والاجتباء، نقف عند قوله تعالى في حق الأنبياء (عليهم السلام): ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤].

فالأنبياء (عليهم السلام) قد اجتباهم الله، وهذا يعني أنه تعالى جمعهم لنفسه على طريق الاصطفاء. وما دام الأنبياء (عليهم السلام) قد أدرجوا في المخلَصين والمصطفين، فينبغي إذاً أن نتعرّف على أهم الصفات التي يتمتع بها المخلَصون في ضوء القرآن الكريم.

المخلَصون كما يصفهم القرآن

تحدّث القرآن الكريم عن المخلَصين وتعرض لذكر صفاتهم في غير مورد. وسنقف في هذه الفقرة من البحث على موردين من تلك

---

(١) الأنعام: ٨٧.

(٢) القصص: ٥٧.

(٣) الأصفهاني، الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ص١٨٦، تحقيق صفوان عدنان داودي دار القلم، دمشق، ١٩٩٢م.

(٤) الأنعام: ٨٧.

الموارد، لنستنتج بعد ذلك صفتين مهمّتين من صفات المخلَصين.

أما **المورد الأول**: وينطلق من قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

يقرّر القرآن الكريم في ضوء هذه الآية المباركة أن الشيطان قادر على أن يوقع بني آدم في الغواية والضلال من خلال التزيين لهم في الأرض. ولكي تتضح المعالم الأساسية لهذه الآية الكريمة ينبغي الوقوف على معنى «الإغواء».

قال الراغب في «المفردات»: «الغي: جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النحو الثاني يقال له: غيّ»[2].

هذا يعني أن الشيطان حينما يريد أن يغوي بني آدم فإنه يجعلهم يعتقدون بأمور فاسدة، إلا إنه يزيّن هذه الأمور أولاً ثم يقوم بالإغواء.

من المعلوم أنّ من يعتقد بشيء فسوف يحبّه لا محالة، بل يسير على خطاه أيضاً، وبذلك يكون السائر على خُطى الشيطان من الغاوين.

---

(١) الحجر: ٣٦- ٤٠.

(٢) المفردات: ص٦٢٠، مصدر سابق.

وقد ركزّ القرآن الكريم على ذكر تزيين الشيطان للإنسان وبشكل متكرّر من خلال آيات متعدّدة. منها قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ﴾[١].

وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[٢].

وقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

إلا أنّ الآية الكريمة التي ذكرت قدرة الشيطان على إغواء بني آدم لم تبق على إطلاقها، بل استثنت منهم مجموعة أطلقت عليهم «عباد الله المخلَصين» وقرّرت بانّ هذه المجموعة لا تقع تحت قدرة الشيطان على التزيين والإغواء، ولا يمكن للشيطان أن ينال منهم بوسوسته وحبائله.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[٥].

فلا سلطان لإبليس إذاً على أولياء الله المخلَصين، لأنّ قلوبهم خالية إلا من حبّ الله (عزّ وجلّ)، فلا يزيّن لهم ولا يغرّهم بإغوائه، بل قد يكون

---

(١) الأنفال: ٤٨.

(٢) البقرة: ٢١٢.

(٣) التوبة: ٣٧.

(٤) الحجر: ٤١- ٤٢.

(٥) البقرة: ٢٥٧.

تزيينه لهم مؤدياً إلى أن يتقربوا إلى الله (سبحانه وتعالى) بدرجة أكبر ولا يزيدهم ذلك إلا ذكراً وخشية منه تعالى: «فما ألقاه الشيطان من حبائله وتزييناته عاد ذكراً لله مقرباً إليه».

تأسيساً على ذلك فإنّ المخلَصين لا يوجد لديهم أي عامل خارجي يؤدي بهم إلى معصية الحق (سبحانه وتعالى).

المورد الثاني: وينطلق من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[1]. على ضوء هذه الآية المباركة نفهم أن هناك عاملاً آخر غير الشيطان قد يكون دافعاً نحو المعصية وارتكاب الذنب، وهو عامل داخلي، ونعني به النفس الأمارة بالسوء كما يصفها القرآن الكريم.

فما هو حال المخلَصين من هذا العامل الداخلي؟

وأين هم من أنفسهم الأمارة بالسوء؟

وحينما عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ فهل يعني ذلك أنّ المخلَصين داخلون في المستثنى أو في المستثنى منه؟!

يأتي الجواب القرآني عن هذه الأسئلة ليقرع الأسماع في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

---

(١) يوسف: ٥٣.

الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

هكذا وبتقرير مطلق يصرف الله (سبحانه وتعالى) عن هؤلاء العباد السوء والفحشاء عموماً سواء أكان مصدره العوامل الخارجية أو الداخلية، والسبب في ذلك أنّهم عباده المخلَصون.

نستنتج من هذين الموردين في تقرير حال المخلَصين ونعتهم أنّ هؤلاء محفوظون من جميع العوامل التي تنشأ منها المعصية ويرتكب بسببها الذنب سواء الخارجية منها أم الداخلية، وبذلك ثبت عصمتهم المطلقة لا محالة.

لكي يكون هذا الطريق تاماً في دلالته على عصمة الأنبياء (عليهم السلام)، ينبغي أن نشير إلى أنّ خاتمة الآية الكريمة المتمثّلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ هي بمثابة العلّة الحقيقية التي تثب بها صرف السوء والفحشاء عن النبي يوسف (عليه السلام). وهذا يعني أنّ كلّ من كان من المخلَصين فإنّ السوء والفحشاء سيكون مصروفاً عنه.

معنى السوء والفحشاء

لكن ما هو المراد من السوء والفحشاء اللذين صرفهما الله تعالى عن عباده المخلَصين؟

قال الراغب في «المفردات»: «السوء: كلّ ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية، من

---

(١) يوسف: ٢٤.

فوات مال وجاه، وفقد حميم، إلى أن قال: وعبّر عن كلّ ما يقبح بالسوء، ولذلك قوبل بالحسنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى﴾[١]، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾[٢]، والسيئة: الفعلة القبيحة، وهي ضد الحسنة»[٣].

على أساس هذا التفسير لمعنى السوء سوف يكون كلّ ذنب قبيحاً، وهو معنى السوء والسيئة، بل إن قصد الذنب، أو التوجّه النفساني لارتكاب المعصية سيكون قبيحاً أيضاً، والسوء بكل معانيه مصروف عن الأنبياء (عليهم السلام) كما قرّرته الآية المباركة في سورة يوسف (عليه السلام).

أما الفحشاء، فقال في «المفردات»: «الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[٤]»[٥].

فالفحشاء إذاً هي كلّ فعل أو قول عظيم القبح، وعليه فلا يكون مطلق القبيح فاحشاً، قال تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾[٦]،

---

(١) الروم: ١٠.

(٢) يونس: ٢٦.

(٣) المفردات: ص٤٤١، مصدر سابق.

(٤) الأعراف: ٢٨.

(٥) المفردات: ص٦٢٦، مصدر سابق.

(٦) الأحزاب: ٣٠.

كناية عن الزنا، لأنّ قبحه عظيم جداً.

في ضوء الآية الكريمة نجد أن القرآن الكريم قد قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، وهذا يعني أن كلّ الأفعال الخارجية التي ثبت أنها عظيمة القبح، وكذلك الأفعال التي ثبت أنها من السوء ومنها قصد المعصية لا تصدر من الأنبياء (عليهم السلام) مطلقاً.

قصّة يوسف

ولسائل أن يسأل: كيف نفهم بأن النبي (عليه السلام) مصروف عنه السوء والفحشاء مع أن القرآن الكريم ينص على أنه «همَّ بها»، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾[1]؟

ثم كيف ينسجم الهمّ بزوجة العزيز ذات الجمال الباهر مع حال المخلَصين الذي صُرف عنهم السوء والفحشاء؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال من المفيد الإلفات إلى ملاحظة مهمّة، أشارت إليها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾. فالآية الكريمة عبّرت بصيغة: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ ولم تعبّر بجملة «نصرفه عن السوء»، فهل من فرق بين هذين التعبيرين؟

الحقيقة هناك فرق كبير، وكبير جداً، لأننا تارة نقول: صرفت زيداً عن اللعب، وأخرى نقول: صرفت اللعب عن زيد.

---

(١) يوسف: ٢٤.

المفهوم من التعبير الأول هو أنّ زيداً يمتلك الإرادة لأن يلعب ويوجد لديه ميل للقيام بهذا العمل ولكنّك صرفت زيداً عنه. بعبارة أخرى، يدلّ التعبير الأول على وجود المقتضى للقيام باللعب عند زيد، إلا أنّ وجود المانع هو السبب في عدم وقوعه.

أما الصيغة في التعبير الثاني فهي بخلاف ذلك، إذ المفهوم منه هو عدم وجود المقتضى للّعب عند زيد أصلاً.

لأجل أن يضع القرآن الكريم أيدينا على هذه الحقيقة المتمثلة بعدم وجود الميل النفساني للسوء والفحشاء في نفس يوسف (عليه السلام) أصلاً، فقد عبّرت الآية الكريمة بجملة: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ ولم تقل: «لنصرفه عن السوء والفحشاء».

تنسجم هذه الحقيقة انسجاماً تاماً مع ما قدّمناه في بيان معنى «المخلَصين»، بمقتضى أن من وُجد عنده الميل النفساني نحو المعصية وارتكاب الذنب سوف لا يكون مخلَصاً، بل مشوباً.

فلا يمكن أن يُدّعى إذاً أن نبيّ الله يوسف (عليه السلام) قد همّ بامرأة العزيز همّاً نفسانياً نحو المعصية، لأنّ ذلك مصروف عنه بنص القرآن الكريم.

مضافاً إلى أنّ الاعتقاد الصحيح في مسألة العصمة يتمثل في أن المعصوم تنكشف له حقائق المعاصي وبواطن الذنوب على ما هي عليه من القبح، وحينئذ فلا معنى لأنّ يهمّ بالمعصية أو يفكّر بها فضلاً عن أن يقوم بها فعلاً.

فهل فكّر أحدٌ منّا بأن يشرب السمّ يوماً ما؟ أو فكّر بأن يرمي نفسه في أحضان النار الملتهبة؟! فالمعصوم ليس مَن لا يعصي الله تعالى فقط، بل هو لا يفكر في ذلك بتاتاً.

في السياق المذكور ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في حديث طويل عن عليّ بن الجهم، قال: «فقال المأمون لأبي الحسن الرضا (عليه السلام): فأخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فقال الرضا (عليه السلام): لقد همت به. ولولا رأى برهان ربه لهم بها كما همت به، لكنه كان معصوماً والمعصوم لا يهم بذنب»[1].

السبب الحقيقي الذي يكمن وراء أن يكون الإنسان مصروفاً عنه السوء والفحشاء وأن يعيش هذا المستوى من الخلوص والصفاء على مستوى القصد أو الميل النفساني؛ يعود في جوهره إلى مسألة العلم واليقين، فمن كان واصلاً إلى مقام العلم واليقين بحقائق الأشياء ووجوداتها التكوينية وممسكاً بخيوط النسيج الذي يؤلّف النظام الوجودي في هذا العالم، يستحيل عليه الهمّ بالمعصية أو الميل الباطني لاقتحامها.

قال تعالى: ﴿لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[2]. والبرهان هو نحو من العلم

---

(١) راجع الأربعون للشيخ البهائي: ج١، ص٢٤٩، وكذلك الميزان في تفسير القرآن: ج١١، ص١٢٦.

(٢) يوسف: ٢٤.

واليقين والكشف التام الذي أعطي ليوسف (عليه السلام) بمقتضى نبوّته وكونه من المخلَصين[١].

كما قال أيضاً: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[٢].

كيف يكون الإنسان من المخلَصين؟

انطلاقاً من المقام الشامخ الذي يحظى به المخلَصون واستناداً لما لهم من سمّو وقداسة وقرب من الله (عزّ وجلّ) على النحو الذي يكون فيه الإنسان معصوماً من الذنب مطلقاً، من حقّنا أن نتساءل عن كيفية حصول الإنسان على هذا المقام الرفيع؟

يُسعفنا القرآن الكريم في الظفر بالجواب الحقيقي عن كيفية تبوّء الإنسان هذا الموقع وسبيله إلى أن يكون «مخلَصاً»، حين يقرّر بأنّ الطريق الوحيد لذلك هو «الحب» وحده. فالإنسان إذا أحبّ شيئاً حبّاً حقيقياً فإنه سيعمل من أجله من غير رجاء إلى ثواب أو انتظار إلى عوض وجزاء. وهذا هو مقتضى الحبّ الذي تتذوق حلاوته القلوب التي اكتوت بناره وتفجرت بوجده.

الحبّ ليس شيئاً بعيداً عنّا، كلا. أننا جميعاً من المحبّين، ولا معنى للحياة بدون حبيب!

---

(١) راجع في تفصيل رجوع العصمة إلى حقيقة العلم: العصمة: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني: محاضرات السيد كمال الحيدري، بقلم السيد محمد القاضي.

(٢) التكاثر: ٥- ٦.

إلا أنّ مشكلتنا جميعاً تكمن في تحديد هذا الحبيب الذي نَهَبُهُ قلوبنا مسكناً وموطناً!!

هل فكّرت في الاندفاع الذي يحصل في نفسك عندما تجد ابنك مريضاً؟ وأنّك مستعد لعمل أي شيء من أجله، مهما كلّفك ذلك من ثمن!!

ما هو السبب في ذلك؟ ولماذا لا يحصل هذا الاندفاع عندما ترى مريضاً آخر بعيداً عنك نسباً؟

هل هو المرض الذي يفتك بهذا الإنسان؟

كلا، لأنه لو كان كذلك، لتحقّق هذا الاندفاع مع كلّ مريض بعيداً كان أم قريباً، والحال ليس كذلك كما يشهد بها الوجدان الصادق!

إنه الحب الذي لا عوض معه ولا جزاء.

فلا يخلو قلب من الحب إذاً، إلا أن الحبيب هو الذي يختلف من قلب إلى قلب آخر. فقد يكون ذلك الحبيب هو الولد أو المال أو النفس أو الوطن، وقد يكون القلب حرماً لحبيب واحد لا شراكة فيه لأحد غيره سبحانه وتعالى.

وهذا هو حال المخلَصين.

فالعمل بلا رجاء لعوض لا ينشأ إلا من الحب، وبذلك يكون صاحبه مخلَصاً، وبه يكون الحب منشأ للإخلاص والخلوص.

لنتأمل سوية في هذه اللوحة الرائعة التي يرسمها القرآن الكريم عن

معنى الحب في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

فالمنطق القرآني إذاً يقرّر بأن الإنسان لا يخرج عن دائرة الفسوق إلا أن يكون الله (عزّ وجلّ) ورسوله وجهاد في سبيله، أحب إليه وأقرب إلى قلبه من جميع الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة.

إذا أردت أيها الإنسان أن تعرف القيمة الحقيقية التي يمثلها حب الله تعالى في قلبك، فانظر إلى حالك حينما يتعارض الحب الإلهي والتضحية في سبيله من المال أو الأولاد أو التجارة في حياتك اليومية، وكل على نفسه بصيرة!!

ولكن ليس كلّ إنسان أحب الله تعالى فإنّ الله يبادله الحب، كلا، بل قد يدّعي شخص منا أنه محبٌّ (عزّ وجلّ)، إلا أن أعماله لا تخلو مما يسخطه (عزّ وجلّ)، ولذا لا تتحقق المبادلة الإلهية في ذلك الحب!

يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ﴾[2].

إذاً، إذا أراد الإنسان أن يكون محبوباً عند الله (عزّ وجلّ) فينبغي له أن يكون تابعاً للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) في كلّ شيء؛ في أقواله وأفعاله وأخلاقه ومعتقداته.

---

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) آل عمران: ٣١.

انطلاقاً من هذا الحب الحقيقي للحق تعالى تتجلّى العبادة الحقيقية التي نص عليها أهل بيت النبوّة في الروايات الواردة عنهم من أنّ عبادتهم لله تعالى لم تكن خوفاً من نار أو طمع في جنة، بل كان منشأها هو الحب والحب فقط، وذلك لأن عبادة الخوف والطمع ليست هي عبادة المخلصين، بل هي عبادة مشوبة مخلوطة بغيره (سبحانه وتعالى).

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): «إن الناس يعبدون الله على ثلاث أصناف، فصنف منهم يعبدون شوقاً إلى جنّته ورجاء ثوابه، فتلك عبادة الخدّام (الحرصاء)، وصنف منهم يعبدونه خوفاً من ناره فتلك عبادة العبيد، وصنف منهم يعبدونه حباً له، فتلك عبادة الكرام، وذلك قوله (عزّ وجلّ): ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[1]»[2].

فالعبادة المخلصة إذاً هي خصوص العبادة الناشئة من الحب، أما غيرها فهي عبادة مشوبة لا محالة.

ولكي يقف الإنسان على حقيقة عبادته فعليه أن يسأل نفسه السؤال الآتي: إذا لم يكن هناك جنّة أو نار وعد بهما الله (عزّ وجلّ) عباده، فهل تبقى له علاقة به (سبحانه وتعالى)؟!

لقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ بعض الناس يعبدون الله (عزّ وجلّ)

---

(١) النمل: ٨٩.

(٢) الصدوق، محمد بن قولويه، الاعتقادات في دين الإمامية: ص٤٥، وكذلك الخصال له أيضاً: ج١، ص١٨٨، باب ٣، ح ٢٥٩.

لأجل ما عنده من الثواب العظيم والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].

فهو تعالى يبشرهم بما عنده من الخير الباقي والنعيم الأبدي.

إلا أنّ هناك مجموعة أخرى من الناس يعبدونه تعالى لأجله هو لا لأجل شيء آخر، ولذا يقول تعالى في حق هؤلاء: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[2].

ويتجلّى الفرق بين هاتين المجموعتين حينما نأخذ المثال الآتي: عندما يُدعى الإنسان إلى حضور وليمة ما، فتارة يكون ذهابه لأجل الوليمة، وأخرى يكون لأجل صاحب الوليمة - وكلّ ذلك منشؤه الحب- فمن يعرف الله تعالى سوف يكون حبه منصّباً عليه هو لا على جنته أو نعيمه، ومن لا يعرفه سبحانه فسيبقى متعلقاً بغيره من جنة أو ثواب أو وليمة!!

درجات المخلصين

يتبيّن مما تقدم أن الطريق إلى الإخلاص يمر من خلال الحب، ولا يتحقق الحب إلا بالمعرفة، وهذه الأخيرة على درجات متفاوتة، وعليه فلو تعدّدت درجات المعرفة سوف تتعدد تبعاً لها درجات الحب أيضاً، وإذا تعدّدت درجات الحب سيكون الإخلاص ذا درجات أيضاً،

---

(١) القصص: ٦٠.

(٢) طه: ٧٣.

فالمخلصون إذاً ليسوا على درجة واحدة. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[١].

كما يتضح أيضاً أن الأنبياء (عليهم السلام) هم في دائرة المخلَصين حيث يقول سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[٢]. قدّمت الآية المباركة مقام الإخلاص على مقامي الرسالة والنبوّة، مما يوحي بأن النبي موسى (عليه السلام) استحق الأخيرين لأنه مخلص لله تعالى.

مما له دلالة على المطلوب، قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنْ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[٤].

فموسى (عليه السلام) من المخلَصين وكذلك يوسف وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، كلهم من المخلَصين. من هنا ينبغي أن نسأل: إذا ثبت أنّ هؤلاء الأنبياء والرسل هم من المخلصين، فهل يدخل في النطاق ذاته خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله)؟ أجل، بل هو سيّد

---

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) مريم: ٥١.

(٣) يوسف: ٢٥.

(٤) ص: ٤٥- ٤٦.

المخلَصين على الإطلاق. وفي ضوء ذلك يتضح أيضا بأن من هو نفس النبي (صلى الله عليه وآله) من المخلَصين أيضاً، فكل تلك المقامات ثابتة لأمير المؤمنين (عليه السلام) إلا النبوّة والرسالة، وهذا غاية ما نريده من القرآن الكريم لإثبات عصمة الأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

ثمرات الإخلاص في دار الدنيا

يصل الإنسان بواسطة الإخلاص إلى الحق (سبحانه وتعالى)، وبالإخلاص يعبده عبادة الأحرار، وكل هذه الثمرات مختصة بالدار الآخرة.

لكن هل ثمّ ثمرات تترتب على الإخلاص في دار الدنيا أم لا؟ لا شك أن هناك مجموعة من الآثار الجلية والثمرات العظيمة التي ينتجها الإخلاص في هذه النشأة. فقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الرضا، عن آبائه (عليهم السلام)، قوله: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما خلص عبدٌ لله (عزّ وجلّ) أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1].

على أنّ هذه الثمرة العظيمة التي لا يؤتاها إلا ذو حظ عظيم، يمكن أن تتحول إلى مقياس لمدى إخلاص الإنسان لله (سبحانه وتعالى) وتفانيه في عبادته (عزّ وجلّ): «وإذا كنت مخلصاً أيها الإنسان فلماذا لا تجري ينابيع

---

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٤٢.

الحكمة من قلبك على لسانك مع أنك تعمل أربعين سنة قربة إلى الله حسب تصورك؟ إذن فاعلم أن أعمالنا غير خالصة لله، ولكننا لا ندري، وههنا الداء الذي لا دواء له! ويل لأهل الطاعة والعبادة والديانة الذين عندما يفتحون أبصارهم ويقيم سلطان الآخرة قدرته، يرون أنفسهم من أهل كبائر المعاصي، بل وأسوأ من أهل الكفر والشرك، بحيث أن صحيفة أعمالهم تكون أشد سواداً من صحائف الكفار والمشركين»[١].

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٢].

الطريق الثالث: الأسوة والقدوة

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٣].

ثبت إلى هنا أن الأنبياء (عليهم السلام) معصومون بالعصمة المطلقة من خلال طريقين، الأول أنّهم (عليهم السلام) جميعاً على الصراط المستقيم، والآخر أن الأنبياء (عليهم السلام) من المخلَصين الذين استخلصهم الله تعالى

---

(١) الخميني، روح الله الموسوي (رضي الله عنه)، الأربعون حديثاً، ترجمة السيد محمد الغروي، ١٩٩١م، طبعة دار الكتاب الإسلامي (مصوّرة عن الطبعة البيروتية).

(٢) الحج: ٧٣.

(٣) الأحزاب: ٢١.

لنفسه.

وها قد وصلنا إلى إثبات عصمتهم من خلال الطريق الثالث وهو طريق الأسوة والقدوة. لكن قبل الخوض في تفاصيل هذا الطريق لابدّ من الوقوف على مقدمة مهمّة في هذا المجال.

حاجة الإنسان إلى السماء

من القضايا الواضحة والمسائل المعلومة لدى الجميع بخاصة لدى من وقف على حقيقة القرآن الكريم؛ أنّ الدين ورسالات السماء إنما جاءت لكي تهدي الإنسان إلى الله (سبحانه وتعالى). قال عزّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾[1].

إلا أن السؤال الأساسي والجوهري في هذا البحث يتلخّص بما يأتي: هل يستطيع الإنسان الوصول إلى الهدف الذي خُلق من أجله وحده؟ أم يحتاج لنيل ذلك إلى يد العون التي ترسم له معالم الطريق الصحيح نحو الوصول إلى الوجهة التي وجهه الله إليها؟

يمكن القول في جواب هذا السؤال، بأنّ هناك معرفتين لابدّ أن يتوفّر عليهما الإنسان لكي يكون مسيره صحيحاً وناجحاً في الوقت نفسه، تتمثل الأولى بمعرفة الهدف الذي يسير نحوه، والثانية بمعرفة الطريق المؤدي إلى ذلك الهدف بالدقة. ولابدّ من اقتران هاتين المعرفتين، بمقتضى أن من فقد إحداهما سوف لا يصل إلى الغاية التي

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

خُلق من أجلها قطعاً.

سيراً على هدي هذه الحقيقة فقد ذكر المحقّقون عند البحث في مسألة النبوّة من علم الكلام أن الإنسان غير قادر على تشخيص الهدف الذي خُلق من أجله بعقله فقط من دون معونة، وكذلك لا يستطيع منفرداً أن يحدّد الطريق الصحيح للوصول إلى الهدف المذكور. وربما يكفي لإثبات هذه الدعوى الواقع الذي مثّلته التجربة البشرية خلال مسيرتها الطويلة إلى هذه اللحظة.

فهل يومئ ما توصلت إليه البشرية الآن إلى السعادة الحقيقية التي تنشدها أجيال الإنسانية كافّة؟ لا أظن أن الجواب سيأتي بكلمة «نعم» إذ سيكون حينئذ من أكبر المكابرات التي يرفضها الواقع المؤلم والوضع المروّع الذي تعيشه الإنسانية اليوم.

الواقع ليس من شأنّ هذا البحث التصدّي لهذه المسألة بصورة مفصّلة؛ غاية الأمر أننا نريد أن نقرّر في هذه المقدمة أن الإنسان لا يستطيع تشخيص الهدف الذي خُلق لأجله بنفسه، ولا الطريق الذي يؤدي إلى ذلك الهدف بسلام.

في خضّم هذا القصور الإنساني والحيرة البشرية تأتي رسالات السماء المتمثلة بالنبوات لتبيّن للإنسان العاجز الهدف الصحيح، وتقرّر تبعاً لذلك الطريق الصحيح أيضاً.

لقد قرّرت الرسالات السماوية جميعاً أن الإنسان لم يُخلق لأجل أن يبقى في هذه النشأة بل لابدّ من الانتقال إلى نشأة أخرى، وما هذه الدار

الدنيا إلا طريق يوصل إلى تلك الغاية، وقرّرت في الوقت نفسه أن الطريق الذي يؤدي إلى النشأة الأخرى بسلام ليس هو إلا الصراط المستقيم، ومن ثم على الإنسان أن يدرك بأنه ملاق ربه لا محالة، بعد أن يطوي رحلته في هذه الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾[١].

أجل، قافلة الإنسانية متجهة برمتها إلى نشأة أخرى وعالم آخر، وتلك الدار الأخرى هي دار القرار ودار الحيوان، وأما هذه الدنيا فهي ليست إلا ممّراً لتلك الدار وطريقاً إليها. يقول الأمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممّركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها اختبرتم ولغيرها خُلقتم»[٢].

إلا أنه اتضح في مستهل هذا البحث بأن هذه القافلة لا تنتهي كلّها بالضرورة عند رضوان الله تعالى، بل قد يكون بعضها كذلك. أما بعضها الآخر فقد ينتهي به الكدح ويخلص به المسير إلى سخط الله (عزّ وجلّ) وغضبه، ومن ثمَّ ليس بمقدور الإنسان أن يختار الوقوف في هذه الدار. يقول سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[٣].

---

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠٣، شرح محمد عبده: ج٣، ص١٨٣، دار المعرفة، بيروت.

(٣) الزمر: ٣٠.

ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[١].

كما يقول أيضاً: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾[٢].

فالكل - حينئذ- مضطر إلى التوجه إليه تعالى وليس باختيار أحد منا أن يتوقف عند هذه النشأة كما أننا جميعاً قد جئنا إلى هذه الدنيا بالاضطرار أيضاً. وليس الموت إلا قنطرة يعبر عليها الإنسان إلى ربه (عزّ وجلّ). إلاّ أنّ هناك مسيرين على هذه القنطرة، أحدهما ينتهي إلى قرب الله تعالى ورضوانه، والآخر ينتهي إلى حيث الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[٣].

في المعنى ذاته جاء عن الإمام الحسين (عليه السلام)، قوله: «صبراً بني الكرام فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟ وأما هؤلاء أعداءكم كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب أليم»[٤].

من هنا يجيء تمييز القرآن الكريم بين الدرجات وبين الدركات،

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) الرحمن: ٢٦.

(٣) النساء: ١٤٥.

(٤) المفيد، محمد بن النعمان، الاعتقادات: ص٥٢، تحقيق عصام عبد السيد، وكذلك في معاني الأخبار له أيضاً: ص٢٨٨، باب معنى الموت، ح٣.

فالذي يريد الوصول إلى الدرجات فلابدّ من أن يسلك قنطرة الصراط المستقيم، وإلا فهو من أهل الدركات لا محالة. يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «ألا حرٌّ يدع هذه اللماظة[١] لأهلها، إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها»[٢].

هذه هي المقدمة التي لابدّ من التعرض لها في مستهل الكلام عن الطريق الثالث لإثبات عصمة الأنبياء (عليهم السلام).

على ضوء ما تسفر عنه هذه المقدمة لابدّ من طرح سؤال مهم يدور حيال الصراط المستقيم.

ما هو الصراط المستقيم؟

بمقدور الإنسان أن يختصر الإجابة عن هذا السؤال بالعبارة المقتضبة الآتية: إنّ الصراط المستقيم هو مجموعة من الاعتقادات، ومجموعة من الأعمال، ومجموعة من الأخلاق. فلكي يكون الإنسان سائراً في الطريق الصحيح نحو القرب الإلهي فلابدّ من توفّره على الاعتقادات الصحيحة التي يعقد قلبه على التصديق بها والإذعان لها، وهذا هو الإيمان الذي يمثّل الركن الأول في الصراط المستقيم.

على ضوء الإيمان الصحيح يأتي الركن الثاني وهو العمل الصالح الذي لابدّ أن يكون بمثابة الترجمان الأمين لتلك الاعتقادات الصحيحة

---

(١) بالضم - بقية الطعام في الفم، يريد بها الدنيا.

(٢) محمد عبده، شرح نهج البلاغة: ج٤، ص١٠٥.

في ساحة الواقع العملي من حياة الإنسان المؤمن.

لكن هل يعدّ الاعتقاد الصحيح كافياً لصدور العمل الصالح من الإنسان؟ الجواب على هذا السؤال هو بالنفي، فالاعتقاد غير كافٍ بمفرده لدفع الإنسان نحو العمل الصالح، بل لابدّ من وجود ملَكة في نفس الإنسان المؤمن هي التي تعطيه الشحنة الكافية لترجمة معتقداته في ساحات الورع والتقوى وسوح الصلاح والخير، فكلنا نعتقد بوجود الله (سبحانه وتعالى)، وكلنا نؤمن بالآخرة والثواب والعقاب، لكن هل كفانا هذا الاعتقاد من ناحية الأعمال الصالحة؟!

الجواب كلا، لأننا لا نعمل إلا بالمقدار الذي يتلاءم مع درجة اعتقادنا بهذه الأمور، وهذا ناشئ من عدم تحقق الملكة النفسانية الراسخة التي تدفعنا صوب الأعمال الصالحة.

فالعلم وحده لا يورث عملاً، لذا قد يتكلّم الإنسان الشجاعة من الناحية النظرية بشكل مفصّل ودقيق، بل قد يؤلف في ذلك كتاباً! ولكنه يكون من الناحية العملية أول الهاربين!!

إذاً هناك ثغرة بين العلم وبين العمل لابدّ من ملئها بما يناسبها لكي يستكمل الصراط المستقيم أركانه الثلاثة، والشيء القادر على سدّ هذه الثغرة هو وجود الملكات النفسانية التي تكون منشأ مباشراً لصدور الأفعال الخيّرة من الإنسان. ولا يخفى أنّ الإنسان المعصوم غير مبتلٍ بهذه الثغرة بين علمه وعمله.

يشير القرآن الكريم لهذه المفارقة بين العلم والعمل، بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[١].

كما يقول سبحانه: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[٢].

أما الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) فيصفها، بقوله: «رُبّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه»[٣].

تؤكد هذه النصوص أن العلم وحده لا يورث عملاً، بل قد يورث جهلاً أيضاً.

تأسيساً على ما تقدّم ينبغي إذاً ملء الهوّة الحاصلة بين العلم والعمل، وذلك من خلال ردمها بالملكات النفسانية القوية التي تصنع من الإنسان كائناً واحداً يتخطى بثبات طريق الكمال بوحدة متواشجة من العلم والعمل والقلب المشرق بنور الله تعالى، وبوجدان عميق تملؤه المسؤولية الكاملة التي تؤهله لأداء الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال!!

أجل، الملكات لا تحصل إلا من خلال المران المتكرر والتربية المركزة عليها، ولذا سيكون التعليم الخالي عن التربية تعليماً أجوف لا ثمرة فيه. من هذا المنطلق نجد أنّ القران الكريم لا يذكر التعليم إلا

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) راجع الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى (ت:٤٣٦هـ): ج٤، ص٣٢٥؛ وكذلك: الإرشاد للشيخ المفيد (ت:٤١٣هـ): ص١١٤.

مقروناً بالتزكية، ولا يذكر التزكية إلا مع التعليم، حتى إننا نجد في الأنظمة الوضعية وزارة باسم «وزارة التربية والتعليم»، مما ينمّ في حقيقته عن أصل قرآني، ويعبّر عن مبدأ من مبادئ الأديان الإلهية الحقّة.

يقول سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

كما يقول أيضاً: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2].

فالقرآن الكريم إذاً يقرّر بأن التعليم الخالي من التزكية ليس من وظيفة الأنبياء (عليهم السلام)، بل وظيفتهم هي التعليم والتزكية معاً.

وبالرغم من اقتران التعليم بالتربية، إلا أنّ وظيفة الأنبياء (عليهم السلام) تتركز على مسألة التربية والتزكية أكثر منها على التعليم، والسر في ذلك أنّ التعليم قد يكون سهلاً متيسّراً، بيدَ أنّ التربية ليست كذلك، بمقتضى تكوين الإنسان وأنه مخلوق في هذا العالم الذي هو عالم الطبيعة والمادة، مما يعني أن هناك أشياء كثيرة تجذبه نحو الأرض بسبب الزينة التي جعلها الله تعالى فيها، وحينئذ فمن الصعب أو المستثقل على الإنسان المخلوق في عالم الطبيعة والمادة المزيّن بأنواع

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

الزينة أن تسمو روحه فوق ذلك كلّه، وأن يؤمن بالغيب وبعالم ما وراء الطبيعة. يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ﴾[1].

لذا يجد الإنسان أنّ الأحكام الشرعية كالصوم والجهاد والإيثار وغيرها لا تتلاءم مع راحته، ومن هنا فقد عبّروا عنها «بالتكاليف»، أي أنها لا تخلو من الصعوبة والمشقّة إلا عند الأوحدي من الناس. نستنتج من ذلك كلّه أنّ التربية ليست بالمهمة اليسيرة لكل أحد. يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «وهما [أي الدنيا والآخرة] بمنزلة المشرق والمغرب، وما شيء بينهما، كلما قَرُب من واحد بَعُد من الآخر، وهما بُعد ضرّتان»[2].

التربية على ضوء المنهج القرآني

ما دامت مهمّة التربية والتزكية بهذه الدرجة من الصعوبة، فلنا أن نسأل عن الطريق الذي يرسمه القرآن الكريم للأخذ بيد الإنسان والوصول به إلى الله (عزّ وجلّ)، من خلال التربية الإلهية الصحيحة؟

في بادئ الأمر يمكن أن نتصوّر لذلك طريقين:

الأول: إنّ القرآن الكريم كرسالة سماوية، ينزل إلى الناس ويلقي

---

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٣، وانظر كذلك إحياء علوم الدين، الغزالي: ج٣، ص٢٠٨، باب ما ورد في ذمّ الدنيا.

إليهم نظرياتهم في ا لحياة ويعلمهم إياها، ويقرّر لكل فعل ثواباً ولكل ذنب عقاباً، ومن دون أن يقرن هذا التعليم بشيء آخر. بيد أنّ هذا الأسلوب ليس بمقدور البلوغ بالإنسان إلى المستوى المطلوب من التربية والتزكية. وإن أردنا أن نستدلّ على فشل هذا الطريق وعجزه عن التربية الصحيحة فيكفينا في ذلك نظرة واحدة إلى الناس الذين يسمعون النصائح ويصغون إلى المواعظ في حياتهم آلاف المرّات، ومع ذلك نجد أنّ مجموع الملتزمين بذلك ضئيل جداً إن لم يكن منعدماً!!

لهذا جاء عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، قوله: «**الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر**»[1].

الثاني: إنّ الله (سبحانه وتعالى) يرسل إلى الناس إنساناً يتمتع بالتربية الكاملة ويتحلى بدرجة عالية من التزكية والخلوص، ويكون مثالاً نابضاً يجسد مقولات التربية الإلهية في حياة الإنسان، ليضطلع بمهمة تربية الناس ثم إيصالهم إلى الغاية التي خُلقوا من أجلها. من الواضح أنّ هذا الطريق يحظى بدرجة كبيرة من التأثير العملي في واقع الحياة البشرية، وقد أثبتت الدراسات النفسية أنّ التأثير الحقيقي منحصر في القدوة الموجودة أمام عين الناس وليس في الكلمات والمواعظ أو النصائح فقط.

---

(١) المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج١٩، ص٢٥٢، مصدر سابق.

ربما كان من أهم الدروس القرآنية التي جسّدت طريق التربية الصحيحة هو الاختبار الذي مرّ به نبيّ الله إبراهيم (عليه السلام)، فلو أراد الله (سبحانه وتعالى) أن يربّي الإنسان ويصل به إلى الدرجة التي يذبح فيها ولده امتثالاً لأمره (عزّ وجلّ)، فهل يكفي أن يعطينا نظرية قرآنية في هذا المجال فحسب؟

كلا، وإنما يختار الله تعالى لتحقيق ذلك المستوى من التربية أن يأمر عبداً من عباده من ذوي التربية العالية والاستعداد الرفيع ليقوم بهذا العمل خارجاً وأمام أعين الخلق، ليستطيع أن يربّي عن هذا الطريق بقية الناس على الامتثال الحقيقي للابتلاءات الإلهية والتسليم لها. ومن المؤكد أنّ الوجدان السليم يتذوق مدى التأثير الكبير الذي ينتجه هذا الطريق التربوي.

تمشياً مع هذا المنهاج الإلهي، لو أراد الإمام الحسين (عليه السلام) أن يربّي الناس على الجهاد في سبيل الله والتضحية من أجل المبادئ المقدّسة، فهل يستطيع تحقيق ذلك من خلال إلقاء المحاضرات الجهادية في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالمدينة المنورة فقط؟! وهل يرقى ذلك إلى المعاني التربوية السامية التي جسّدها عملياً من خلل ما قام به يوم عاشوراء على عرصة كربلاء؟

هل المحاضرات الجهادية وحدها هي التي دفعت عابس إلى خلع لباس الحرب والتقدم صوب الشهادة بتلك الصلابة التي يصفها هو (رضي

الله عنه)، بقوله : حبّ الحسين أجنّني؟!

إنّ ما قام به الحسين (عليه السلام) في يوم عاشوراء من تقديم أبنائه وصفوة أصحابه ليُذبحوا في سبيل الله، ثمّ تقديم نفسه المقدّسة أيضاً وبهذه الصورة التي هزّت أركان التأريخ لهو أعظم درس إلهي تحقق على يد سيّد الشهداء في مجال تربية الناس والوصول بهم إلى رضوان الله (سبحانه وتعالى). وإلا فإنّ نصائح الجهاد والتضحية قد قالها كثير من الناس ودوّت برنينها كثير من المنابر، لكننا لم نجد فيها ذلك التأثير الذي هزّ أعماق النفوس وخباياها في واقعة الطفّ العظيمة.

هكذا يتّضح أنّ الطريق الذي له القابلية على جذب الناس نحو التربية الصحيحة وبتأثير فاعل وكبير، يتمثل بوجود القدوة التي تمثّل أعلى درجات التربية الإلهية القويمة. وهذا هو الفرق الأساسي بين الدين وبين غيره في النظريات الأخرى، فالفلاسفة ورعيل حكماء الإنسانية قد أسّسوا نظرياتهم في شتّى المجالات وعلى مختلف الصور، إلا أننا نجد التأثير الحقيقي في المجتمعات البشرية منحصراً في الأديان، لأن حاملي هذه الأديان من الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) قد عملوا جميعاً بما قالوا قبل أن يقولوا!

لذا ركزّ القرآن الكريم على حقيقة الاقتران بين القول والفعل أو بين العلم والعمل، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ

تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[١]، فإن ذلك من المحرمات التي يبغضها الله (عزّ وجلّ) بغضاً شديداً.

وهذا هو السبب الحقيقي الذي يكمن وراء التركيز القرآني على مسألة القدوة الحسنة في الأنبياء (عليهم السلام). يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢].

ويقول أيضا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[٣].

فلم يكن الأنبياء معلّمين فقط، بل كانوا قدوة وأسوة حسنة في حياة الناس جميعاً لأنهم يقولون ما يفعلون.

حصيلة ما تقدّم أنّ التأثير الحقيقي في التربية إنما هو للفعل دون القول، ولذا نرى أنّ الناس يميلون إلى جهة أفعال الإنسان دون أقواله فيما لو خالفت أفعاله أقوالَه. والتربية عن طريق الأفعال هي من أهم الخصائص التي اختصّت بها الرسالات السماوية.

يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «إني والله ما أمركم إلا ما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجدّ والاجتهاد»[٤].

---

(١) الصف: ٢- ٣.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) الممتحنة: ٤.

(٤) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٧، ص٢٢، مؤسسة آل البيت لأحياء التراث.

ويقول (عليه السلام) أيضاً: «كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»[١].

يسجّل القرآن الكريم بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) معصوم على مستوى الأقوال، حيث قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٢].

واستناداً إلى ما مرَّ من طبيعة الطريق الذي اختاره القرآن الكريم في التربية الصحيحة فلابدَّ أن يكون النبي (صلى الله عليه آله) معصوماً على مستوى الأفعال أيضاً، إذ من غير المنطقي أن لا يكون معصوماً من الجهة الأشد تأثيراً في تربية الناس وتزكيتهم، فالنبي (صلى الله عليه وآله) ليس فقط لا ينطق عن الهوى بل هو لا يفعل ولا يعمل عن الهوى أيضاً، فكما أنه معصوم في القول كذلك هو معصوم على مستوى التطبيق لا محالة.

ربّما يتساءل بعضهم عن البواعث التي تملي أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله) معصوماً على مستوى العمل بالضرورة؟ تنقلنا الإجابة عن هذا السؤال إلى إماطة اللثام عن حقيقة أخرى، نسلّط الضوء عليها بما يأتي: سلفت الإشارة إلى أنّ الشريعة الحقّة هي مجموعة من الاعتقادات والأعمال والأخلاق، فلو فرضنا أنّ مجموع ذلك كلّه هو مئة مسألة مثلاً، فالسؤال حينئذ: هل النبي الذي جاء بهذه الشريعة قادر على

---

(١) الأصول من الكافي، باب الورع، ح٩.

(٢) النجم: ٣- ٤.

تطبيقها بنسبة ١٠٠٪؟ إذا كان الجواب بأنه غير قادر على ذلك ولو بنسبة ضئيلة جداً، فهذا يعني أنّ هذه الشريعة غير قابلة للتطبيق أساساً، بمقتضى أنّ من كان بهذا المستوى من الملكات النفسية والاعتقادات القلبية والقوة القدسية كالأنبياء (عليهم السلام) غير قادر على ذلك، فكيف إذاً بالناس العاديين الذين لا يتمتّعون بالمواصفات المذكورة؟!

لكي يكون تنزيل الشريعة نابعاً من الحكمة المطلقة فلابدّ من وجود نموذج كامل لديه القدرة على تطبيق تمام الشريعة من دون انحراف أو ضلال، ولا ممثّل لهذا النموذج إلا الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام)، ومن هنا عبّر أهل المعرفة عن الأنبياء والأوصياء بأنهم يمثّلون «الإنسان الكامل».

الانحلال الاجتماعي بغياب القدوة الصالحة

بالاستعانة بما تقدّم نكون قد وصلنا إلى إمكانية تحديد السبب الجوهري الذي يكمن وراء الانحلال ومظاهر الفساد التي تصيب المجتمعات الإسلامية عموماً، فالسبب لا يعود إلى نقص الدين أو النظرية التي يقدّمها الإسلام في مجال النظام الاجتماعي والبعد التربوي، بل إنّ المشكلة الأساسية تكمن قبل ذلك في القدوة التي يمكن أن يقتدي بها الناس في حياتهم والتي لابدّ أن تكون تجسيداً أميناً للشريعة في ميادين الحياة الاجتماعية سواءً على مستوى الأسرة أو على مستوى المجتمع ككل.

هكذا ننتهي إلى دليل بارز آخر من أدلّة إثبات عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في القرآن الكريم تمثّل بأنهم جميعاً كانوا قدوة وأسوة حسنة للمجتمع الذي بُعثوا فيه بل للإنسانية جميعاً. وبذلك تثبت المرحلة الأولى من عصمة الأنبياء (عليهم السلام) بالطرق الثلاثة المتقدّمة.

الخلاصة

١. ينطلق البحث في هذا القسم من فكرة تفيد أنّ العصمة المطلقة هي قضية قرآنية تبنّاها القرآن للأنبياء جميعاً.

٢. تكتسب العصمة في منهجية هذا البحث أربع مراحل، هي العصمة في الأوامر والنواهي، والعصمة في تلقي الوحي وإبلاغه، والعصمة في تطبيق الشريعة، وأخيراً العصمة على مستوى الشؤون الحياتية العادية. والأنبياء معصومون بالعصمة المطلقة بجميع مراحلها الأربع هذه.

لكلّ مرحلة من هذه المراحل أدلّتها من القرآن، حيث توزّع هذا القسم على أربعة بحوث غطّى كلّ واحد منها العصمة في المرحلة التي توازيه.

٣. يختصّ البحث الأول بإثبات العصمة في مرحلتها الأولى المتمثلة بالتزام المعصوم بجميع الأوامر والنواهي الإلهية، على النحو الذي لا يتخلف فيه المعصوم عن واجب ولا يجترح محرماً مطلقاً. والاستدلال على هذا المعنى للعصمة تمّ عبر عدد من المنطلقات

والأدلّة القرآنية ركزّ البحث على ثلاثة.

٤. ينطلق الدليل الأول من مفهوم الصراط المستقيم، فالصراط المستقيم هو أقصر الطرق في رحلة الإنسان نحو الله، والأنبياء هم جميعاً على الصراط المستقيم، ومن يكون على الصراط المستقيم ودائرته، فلا يضلّ ولا ينحرف، وبهذا تثبت عصمتهم في هذه المرحلة.

الأنبياء هم قائدو ركب الإنسانية في طريق الهدى والوصول إلى الله، قد هداهم الله وعصمهم من الضلال وآمنهم من الانحراف بوضعهم على الصراط المستقيم: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١]. وأوجب طاعتهم، والعقل يمنع أن تصدر عن هؤلاء المعصية وهم بهذه المثابة والدور والمنزلة.

٥. ينطلق الدليل القرآني الثاني ممّا يتحلّى به الأنبياء قرآنياً من الإخلاص والاجتباء، ففي منطق القرآن أدرج الأنبياء في المخلَصين والمصطفين الذين اجتباهم الله واصطفاهم وخصّهم بذلك: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾[٢]، ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنْ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[٣]. ومادام القرآن نفسه يقرّر خصالاً للمخلَصين منها عدم قدرة الشيطان على إغوائهم والإيقاع بهم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ

(١) الأنعام: ٨٧.

(٢) الأنعام: ٨٧.

(٣) ص:٤٥- ٤٦.

مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١]، كما عدم انجرارهم إلى نوازع النفس الأمارة: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[٢] لتكون الحصيلة عصمة هؤلاء الأنبياء المجتبين المخلصين المصطفين وحفظهم من إغراءات الشر الخارجي ونوازعه الداخلية معاً: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

٦. ينطلق الطريق الثالث في الاستدلال على العصمة المطلقة في هذه المرحلة، من مبدأ الأسوة الحسنة. فالتربية بالأسوة الحسنة هي أفضل سُبل إعداد الإنسان، والقرآن حثّ على الاقتداء بالأسوات الحسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٤]، وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[٥]. بمعنى أنّ الأنبياء هم القدوة الحسنة للإنسان في طريقه وما يكابده من مشاقّ السير إلى الله، وهم المثال الحي الشاخص أمام أعين الناس جميعاً وعلى مرأى الإنسانية، بما تحمّلوه من الابتلاءات والتسليم العالي الذي صدر منهم إزاء ذلك.

من هذه الجهة لابدّ أن تكون هذه الأسوات معصومة على مستوى

---

(١) الحجر: ٤٢- ٤٣.

(٢) يوسف: ٥٣.

(٣) يوسف: ٢٤.

(٤) الأحزاب: ٢١.

(٥) الممتحنة: ٤.

الأفعال وما يصدر منها، لتتمثل موقعها كأسوة، ويصحّ توجيه القرآن الناس للاقتداء بها، والاسترشاد بهديها وسلوكها.

وهذا هو فحوى الاستدلال على مستوى الدليل الثالث للعصمة في هذه المرحلة.

البحث الثاني

العصمة في تلقّي الوحي وإبلاغه

سبقت الإشارة إلى أنّ دراسة عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في نطاق منهجية هذا البحث، لابدّ أن تتمّ في مراحل ثلاث، حيث انتهى الكلام عن إثبات المرحلة الأولى، ومن ثمّ سينصبّ الحديث الآن عن عصمتهم في المرحلة الثانية، التي تعني العصمة في تلقي الوحي من الله تعالى وحفظه وإبلاغه إلى الناس من دون خطأ أو اشتباه في ذلك كلّه، وقد ذكرنا أنّ هذه المرحلة تتكون بدورها من ثلاثة مقاطع هي:

١. تلقّي الوحي منه (سبحانه وتعالى) حتّى وصوله إلى النبي (صلى الله عليه وآله).

٢. وجود الوحي عند النبي (صلى الله عليه وآله) بعد ما يتنزل من الله (عزّ وجلّ) على قلبه.

٣. خروج الوحي المنزَل من قلب النبي (صلى الله عليه وآله) حتّى يصل إلى الناس.

المطلوب في هذا البحث أن نقيم الدليل القرآني على أن النبي أو الإمام (عليه السلام) لابدّ أن يكون معصوماً في جميع هذه المقاطع الثلاثة، ومن غير الممكن أن يقع الخطأ أو الاشتباه فيها، خلافاً لما قرّرت بعض اتجاهات المسلمين فيما ذهبت إليه من أنّ الشيطان قد يتصرّف في أحد المقاطع المذكورة، ليكون قادراً على تخطئة النبي (صلى الله عليه وآله) فيما ينزل عليه من الوحي، فيقول النبي شيئاً وينسبه إلى الوحي الإلهي في الوقت الذي لا يكون فيه ذلك الكلام وحياً منزلاً حقيقة على قلبه، بل هو أقوال ألقاها الشيطان في روعه[1]!

لقد اتّفقت كلمة علماء المسلمين على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) معصوم عن الكذب، في المقاطع المذكورة جميعاً.

قال صاحب «المواقف»: «أجمع أهل الملل والشرائع على عصمتهم عن تعمّد الكذب فيما دلّت المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله، وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف، فمنعه الأستاذ وكثير من الأئمّة لدلالة المعجزة على صدقهم وجوّزه القاضي أبو بكر الباقلاني»[2]. أي جوّز الخطأ في إبلاغ الرسالة ولكن سهواً ونسياناً.

فالمتّفق عليه إذاً هو أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لا يتعمد الكذب في تبليغ ما أوحي إليه من أحكام الله تعالى، لكنه هل يسهو في ذلك أو لا؟

---

(١) راجع للوقوف على ذلك: التفسير الكبير، الفخر الرازي: ج٢٣، ص٤٩.

(٢) الأيجي، القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، مع شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني: ص٢٦٣.

ذهب مشهور علماء المسلمين إلى عدم إمكان ذلك، وذهب البعض كالباقلاني إلى الجواز.

إلا أنّ المهم حسب منهجية هذه الدراسة، هو الرجوع إلى القرآن الكريم ومعرفة ما يقرّره في هذه المسألة الجوهرية وما يقوله عن عصمة الأنبياء (عليهم السلام).

على ضوء كلام الله (سبحانه وتعالى) هناك عدّة طرق لإثبات هذه المرحلة من العصمة، هي:

الطريق الأول

يرتكز هذا الطريق على عدّة قضايا تقدّم بعضها سابقاً، ونتعرض لها هنا على سبيل الإيجاز:

١. إنّ الله (سبحانه وتعالى) لم يخلق الإنسان في هذه الدنيا عبثاً بل خلقه لغاية وهدف، وهذا الهدف هو الرجوع إلى الله (عزّ وجلّ) والصعود إليه.

٢. إنّ الإنسان غير قادر بمفرده على تشخيص الأمور التي تنفعه في الوصول إلى ذلك الهدف، وهو غير قادر أيضاً على معرفة الطريق الصحيح الذي ينبغي عليه أن يسلكه في مسيره نحو الوصول إلى الحقّ (سبحانه وتعالى).

تعدّ هذه القضية من أمهّات المسائل التي تدخل في إطار فلسفة النبوّة ورسالات السماء، ومما يحتاج إلى شيء من التوضيح.

الحاجة إلى الوحي في الوصول إلى الله

يستطيع الإنسان في هذا العالم الذي يعيش فيه وهذه الأرض التي يتقلّب عليها، أنّ يتعرف على بعض الأشياء التي تنفعه وبعض الأشياء التي تضرّه من دون الاحتياج إلى شيء خارج عن محيط البشرية وحدود المجتمع الدنيوي، وذلك من خلال التجربة التي يقوم بها في معرفة الأشياء المذكورة. فهو يعرف مثلاً أنّ النار محرقة، وأنّ السم قاتل، كما يعرف بأنّ الماء يرفع العطش وأنّ أقراص الأسبرين ترفع ألم الرأس إلى غيرها من الأمور التي نلمس نفعها أو ضررها بشكل مباشر في حياتنا اليومية. إلاّ أنّ كلّ هذه الأمور إنما تحصل على مستوى عالم الدنيا.

لكنّنا عرفنا مما تقدّم أنّ الإنسان لم يخلق ليعيش في هذه الدنيا فحسب، وأنّ هذه الدنيا بالنسبة له ليست إلا ممر وطريق يصل من خلاله إلى الغاية والهدف الذي خُلق من أجله، وهو الوصول بسلام إلى عالم الآخرة.

وحيث أنّ عالم الآخرة ليس من الأشياء التي تقع تحت سلطان التجربة الإنسانية كما كان الحال في النار والماء والدواء، فلا يكون الإنسان حينئذ قادراً على معرفة ما ينفعه وما يضرّه في ذلك العالم الآخر.

على أساس هذه الحقيقة يمكن أنّ نقرّر أنّ الإنسان لو عاش على

هذا الكوكب آلاف السنين، فلا يستطيع في آخر المطاف أن يعرف ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1]. أو يعرف بأنّ الصلاة وصلة الرحم والإنفاق والإحسان من الأمور التي تورث السعادة الحقيقية للإنسان.

وعليه فلابدّ من وجود قوّة أخرى تعيّن له ما ينفعه وما يضرّه فتأمره بامتثال الأول، وتنهاه عن ارتكاب الثاني.

من هذا المنطلق أدرك العقل الإنساني ضرورة الحاجة إلى الوحي والأنبياء (عليهم السلام)، للقيام بهذه المهمّة العظيمة.

ولذا لم يتعرّض الإسلام - بوصفه رسالة سماوية - إلى بيان القضايا المرتبطة بالأمور التي يستطيع الإنسان التعرّف على نفعها أو ضررها من خلال التجربة، لأنّ الإنسان في هذا المجال غنيّ عن الإرشاد بما يمتكله من قوّة العقل الخلاّقة والمبدعة التي وهبه الله تعالى إيّاها.

أما في القضايا الأخرى التي تقع في طريق الوصول إلى عالم الآخرة كالعبادات الشرعية مثلاً فنجد أنّ الإسلام قد تعرض لبيان أدق التفاصيل والخصوصيات التي ينبغي أن يقوم بها الإنسان عند عبادته لله (سبحانه وتعالى)، لأنّ العقل الإنساني عاجز عن إدراك تفاصيل هذا الطريق والنتائج المترتّبة عليه في العالم الآخر، فلو عاش العقل الإنساني ملايين السنين متأملاً متفكّراً لما أدرك أنّ صلاة الصبح ركعتان، أو أنّ الحج

---

(١) النساء: ١٠.

إلى بيت الله الحرام يتمّ بهذه الكيفية التي تنصّ عليها كتب الفقه!

يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1]. نستطيع الوقوف على حقيقة ما قرّرناه في ضوء هذه الآية الكريمة بالتمييز بين صيغتين لغويتين، إذ يعبّر تارة من الناحية اللغوية بعبارة: «كما علّمكم ما لم تعلموا»، وأخرى بعبارة: «كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون».

على ضوء التمييز يبن هذين التعبيرين نسجّل: إنّ الصيغة الأولى تعني أن الشيء الذي لا يعلمه الإنسان يمكن أن يعلمه لاحقاً بمفرده ولا استحالة في ذلك. أما الصيغة الثانية فهي تدلّ على أنّ ما لا يعلمه الإنسان لا يمكن أن يعلمه بمفرده وليس من شأنه ذلك، بل لابدّ من الوحي لحصول التعلّم. وعليه فالتعبير الثاني ينفي شأنية العلم بدون الوحي ورسالات السماء، والآية المباركة عبّرت بالثاني وقالت: ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى أيضاً: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[2]، فأحكام الدين التي تنير الطريق الذي يأخذ بيد الإنسان نحو الله (سبحانه وتعالى)، ليست كأحكام الطب أو الفيزياء أو الكيمياء أو قوانين المرور! كلا، لأنّ هذه الأمور جميعاً تقع تحت سلطان القدرة

---

(١) البقرة: ٢٣٩.

(٢) النساء: ١١٣.

الخلاقة للعقل الإنساني.

من هذا المنطلق يقرّر السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدّس سره): «إن القرآن الكريم لم ينزل كتاب اكتشاف بل كتاب هداية، والقرآن الكريم لم يكن كتاباً مدرسياً ... وإنما نزل هذا الكتاب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لكي يخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية والإسلام، إذاً فهو كتاب هداية وتغيير وليس كتاب اكتشاف.

ومن هنا لا نترقّب من القرآن الكريم أن يكشف لنا الحقائق والمبادئ العامّة للعلوم الأخرى، ولا نترقب من القرآن الكريم أن يتحدث لنا عن مبادئ الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان. صحيح أنّ في القرآن الكريم إشارات إلى كلّ ذلك، ولكنّها إشارات بالحدود التي تؤكد على البعد الإلهي للقرآن، وبقدر ما يمكن أن يثبت العمق الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل، والذي استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين في مقام الكشف عن حقائق متفرقة في الميادين العلمية المختلفة، لكن هذه الإشارات القرآنية إنما هي لأجل عرض علمي من هذا القبيل لا من أجل تعليم الفيزياء والكيمياء.

القرآن لم يطرح نفسه بديلاً عن قدرة الإنسان الخلاقة، عن مواهبه وقابلياته في مقام الكدح، الكدح في كلّ ميادين الحياة بما في ذلك ميدان المعرفة والتجربة، وإنما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للإنسان مفجّرة طاقاته، محركة له في المسار الصحيح، فليس من الطبيعي أن

نترقّب منه استعراض مبادئ عامة لأي واحد من هذه العلوم التي يقوم الفهم البشري بمهمّة التوغّل في اكتشاف نواميسها وقوانينها وضوابطها»[١].

تتمثّل حصيلة الأمر الثاني في أنّ الإنسان مخلوق محتاج إلى الوحي، بل هو في أشدّ الحاجة إليه.

٣. في ضوء حاجة الإنسان إلى الوحي والهداية الربانية بحسب فطرته وقدراته التكوينية، هل من المنطقي أن يخلق الله (عزّ وجلّ) الإنسان بهذه الصورة ثم لا يبعث له من يهديه إلى الصراط المستقيم؟

بالتأكيد ليس هذا بالمنطقي ولا بالمعقول، وللوقوف على استحالة ذلك نأخذ مثالاً آخر. فالإنسان خلق تكوينياً وهو محتاج إلى الماء عند العطش، فهل يكون من الصحيح أن يُخلق بهذه الصورة ولا يخلق الله له ماء لرفع ذلك العطش؟ من الواضح أنّ هذا ليس من شأن الحكيم، فإنه لو حصل ذلك لكان خلق الإنسان عبثاً ولهواً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

بالاستناد إلى هذا النظام الوجودي المحكم الذي يكمّل بعضه بعضاً تأتي بعثة الأنبياء (عليهم السلام) لتعبّر عن قانون حتمي من القوانين التي تحكم نواميس الوجود لهداية البشرية جمعاء نحو الله (سبحانه وتعالى). فلو لم يبعث إلينا أنبياءٌ مبشرين ومنذرين لسقطت الحجّة عن الإنسان

---

(١) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية: ص٤٧- ٤٨، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ١٤٢١ هـ المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر (قدّس سره).

يوم القيامة، وعندئذ لا يمكن محاسبته على أفعاله وتركه بمقتضى عجز العقل الإنساني عن المعرفة التي تنفعه في ذلك اليوم.

والقرآن الكريم يقرّر بأنّ الحجة البالغة لله تعالى على الناس هم الرسل والأنبياء الذين بُعثوا برسالات السماء. يقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[١].

ويقول أيضاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[٢].

ويقول: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[٣].

لقد ورد عن مسعدة بن زياد، قال: «سمعت جعفر بن محمد (عليه السلام)، وقد سئل عن قوله تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، قال الله تعالى للعبد: أكنت عالماً؟ فإن قال: نعم، قال: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً، قال له: أفلا تعلّمت؟ فتلك الحجّة البالغة لله تعالى»[٤].

---

(١) النساء: ١٦٣- ١٦٥

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) الأنعام: ١٤٩.

(٤) المفيد، محمد بن النعمان، الأمالي: ص٢٢٧، ح٦، وكذلك أمالي الطوسي: ج١،

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبيائه، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول»[١].

تحليل آية

عندما نقف عند قوله سبحانه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٢]، نجد أن الآية الكريمة عرّفت الجمع «النبيين» بالألف واللام، وهذه الصيغة تعني أنّ جميع الأنبياء مشمولون بالحكم الوارد في الآية المباركة، بمقتضى إفادة الجمع المعرف بالألف واللام للعموم لغوياً.

ثم قالت: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، والباء هنا تفيد المصاحبة؛ أي إنّ الكتاب نزل وهو مصاحب للحق، من مبدأ نزوله إلى أن يصل الناس.

ثم قالت: ﴿يَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، مما يعني أن أساس الكتاب الذي نزل بالحق هو رفع الاختلاف الموجود في المجتمعات البشرية.

ثم قالت: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ

ص٨

(١) شرح نهج البلاغة، محمّد عبده: ج١، ص٢٣.

(٢) البقرة: ٢١٣.

الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

نستطيع أن نقرّر إذاً أنّ منشأ الاختلاف على ضوء الآية الكريمة هم العلماء الذين نزل عليهم الكتاب، وأنّ السبب في هذا الاختلاف هو البغي الحاصل بينهم، أي ظلمهم وعدوانهم. كما تقرر الآية أيضاً أنّ الله (سبحانه وتعالى) أنزل الكتاب المتمثّل بالوحي لكي يخرج المجتمع الإنساني من وطأة هذا الاختلاف ويهديه إلى الصراط المستقيم.

ولو فرضنا أنّ هذا الكتاب قد يصيبه الخطأ أو النقص والزيادة في أحد المراحل التي ذكرناها سابقاً وهي التلقي والحفظ والتبليغ إلى الناس، فلا يكون حينئذ سالماً في وصوله إلى المجتمع البشري، ومن ثمّ لا تكون هذه الحجة تامّة عليهم. وما دام القرآن قد نصّ بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ فينبغي أن نفهم بأن هذه الحجة لابدّ أن تكون محفوظة من النقص والزيادة والسهو والخطأ والنسيان في جميع المقاطع الثلاثة التي تمر من خلالها.

أجل بعد أن تتمّ الحجّة لله تعالى وتكمل في مقاطعها الثلاثة يبقى الخيار للناس حينئذ، إن شاءوا عملوا بها، وإن شاءوا تركوا، وهذا حديث آخر غير ما نحن بصدده. يقول سبحانه: ﴿أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ

---

(١) البقرة: ٢١٣.

انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[١].

حصيلة هذا الطريق إذاً، أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) معصوم في المرحلة الثانية بجميع مقاطعها المذكورة.

ففي المقطع الأول المتمثّل بتلقي الوحي، يقول سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[٢].

وفي المقطع الثاني المتمثّل بالحفظ في قلب النبي، يقول سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾[٣].

وفي المقطع الثالث المتمثّل بإيصال الرسالة السماوية سالمة إلى الناس، يقول سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤].

الطريق الثاني:

يقول سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كلّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[٥].

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) الشعراء: ١٩٣.

(٣) الأعلى: ٦.

(٤) النجم: ٣- ٤.

(٥) الجن: ٢٨.

على ضوء هذه الآية الكريمة، نستطيع أن نثبت عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في المرحلة الثانية من العصمة بمقاطعها الثلاثة جميعاً.

حينما نستنطق الآية المتقدّمة نجد أنها تربط مسألة الوحي بعالم الغيب، فقد قالت: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾. وحينئذ فمن الواضح أن السبب في ارتباط الوحي بعالم الغيب، هو أن الأنبياء (عليهم السلام) حينما يرسلون إلى الخلق فإنهم يحملون الحقائق التي تخص عالم الآخرة من الجنة والنار والثواب والعقاب، ومن المعلوم أن هذه الأمور وأمثالها هي أمور غيبية بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون في هذه الحياة الدنيا، وعالم الغيب أو علوم الغيب مختصّة به (سبحانه وتعالى).

يقول سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[1].

كما يقول: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[2].

وليس العلم بالغيب وحده من مختصاته (سبحانه وتعالى)، بل الأمر.

كذلك في الرزق والخلق والتدبير والتوفّي وغيرها. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[3].

ويقول: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ﴾[4].

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) النمل: ٦٥.

(٣) الذاريات: ٥٨.

(٤) الزمر: ٦٢.

ويقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[١].

بيد أنّ القرآن الكريم نفسه يعود ليقرّر بأنّ هذه الأمور قد تثبت لغيره (تبارك وتعالى). ففي مسألة التوفي مثلاً، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[٢]. وفي مسألة التدبير يقول تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[٣]. كذلك الحال في الأمور الأخرى من الرزق والولاية والحكم وغيرها.

في ضوء هذين القسمين من الآيات المباركة ينبغي أن نفهم ما يقتضيه كلّ قسم منهما، وكيفية التوفيق بينهما. يفيد الفكر العقائدي في هذا المضمار، أنّ الله (سبحانه وتعالى) يخلق ويدبّر ويرزق ويتوفّى ويعلم الغيب بنحو الاستقلال والغنى، فهو (عزّ وجلّ) غنيّ عن كلّ شيء مطلقاً. أما غيره تعالى من مخلوقاته فإنها وإن كانت تدبّر وتعلم الغيب وتتوفّى الأنفس، إلا أنّ ذلك لا يصدر منها على نحو الغنى والاستقلال بل هي فقيرة في ذلك إلى الغني (سبحانه وتعالى) بمقتضى إمكانها ومعلوليتها للحقّ (عزّ وجلّ).

فعلم الغيب المختص بالله (تبارك وتعالى) هو الموجود على نحو الاستقلال والغنى، ومن ثمّ قد يثبت علم الغيب لمخلوق من مخلوقاته تعالى ولكن لا بنحو الاستقلال، بل يكون بذلك فقيراً لله تعالى ومحتاجاً

---

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) السجدة: ١١.

(٣) النازعات: ٥.

إليه. وممن يعلم الغيب بهذه الكيفية هم الرسل والأنبياء (عليهم السلام)، حيث قوله (جلّ وعلا): ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾.

فهؤلاء الرسل الذين ارتضاهم واصطفاهم واستخلصهم لنفسه، بمقدورهم الإطلاع على مكنونات عالم الغيب بتعليم منه (جلّ وعلا). وحينما يقف هؤلاء المقدّسون في ساحة قدسه (عزّ وجلّ) وأمام جبروته تعالى، فإنهم لا يملكون شيئاً من العلم حينئذ، وهل ثمّة نسبة يمكن أن تقاس بين المتناهي واللامتناهي؟!

لكنّهم حينما يكلمون الناس ويتوجّهون إليهم بالتبليغ الإلهي، فهم يملكون الشيء الكثير بالنسبة إلى غيرهم من الخلق. ولذا قد يتوهّم البعض بأنّ العلم الغيب مختصّ بالله (سبحانه وتعالى) ولا يمكن لأي مخلوق أن يدّعي ذلك حتى الأنبياء (عليهم السلام)، متمسكاً بأمثال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ﴾[1]، مع أنّ الجهة هنا تختلف عن الجهة التي يتحدّث عنها قوله تعالى: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ من حيث الغني والاستقلال والفقر والاحتياج.

المهم في هذه الفقرة من البحث هو معرفة الدليل الذي يثبت أنّ هذا الغيب المعطى للرسل والأنبياء (عليهم السلام)، يبقى محفوظاً إلى أن

---

(١) الأعراف: ١٨٨.

يصل الناس سالماً.

على هذا الأساس نتعامل مع قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾[1]. فهذه الآية المباركة تقرّر أن الله (سبحانه وتعالى) يتعهّد بحفظ الوحي والرسول الذي يحمله من بين يديه ومن خلفه حتى تصل الرسالة الإلهية إلى الناس سالمة من كلّ عيب ونقص.

ومعنى «سلك» في اللغة: جعل، أما الراصد فهو الحافظ، أي إنه تعالى جعل حفظة للوحي من حين نزوله على صدر النبي (صلى الله عليه وآله) حتى إبلاغه إلى الناس.

على أنّ المهم أن عصمة النبي (صلى الله عليه وآله) في المقطعين الأول والثالث من المرحلة الثانية، يمكن أن تثبت في ضوء الآية المباركة نفسها، وذلك من خلال تحليل قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. فحينما ينطلق النبي أو الرسول لأداء رسالته مبعوثاً من الله تعالى، فسوف يكون وجهه نحو الخلق أو نحو الناس المرسل إليهم، لأنه يتحرك للوصول إليهم، وأما خلفه فسيكون لله (سبحانه وتعالى) لأنه قد انطلق منه نحو الخلق. والآية الكريمة قالت بأن الله تعالى جعل حفظة للوحي من بيد يدي الرسول، وتعبير «بين يديه» كناية عن جهة الأمام، أي أنه (عزّ وجلّ) تكفّل بحفظ الوحي في المقطع الثالث، أي ما بين الرسول وما بين

---

(١) الجن: ٢٧.

الناس. ثمّ قالت «ومن خلفه»، وهذا تعبير عن المقطع الأول، وهو ما بين الله تعالى وما بين قلب الرسول (صلى الله عليه وآله). هكذا تُقرّر الآية المباركة أن الله تبارك وتعالى قد جعل رصداً حافظاً يحفظ الوحي من النقص والعيب والخطأ والاشتباه في المقطعين الأول والثالث.

وقد ذكر صاحب تفسير «التحرير والتنوير» وجهاً لطيفاً في ذيل قوله تعالى: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، فقال: «والسلك حقيقته الإدخال، كأن أولئك الملائكة والحفظة من شدة قربهم من النبي (صلى الله عليه وآله) فكأنهم دخلوا في وجوده، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[1]، يعني ندخله عذاباً صعداً، فشبه اتصال الملائكة بالرسول وحراستهم له بشيء داخل في أجزاء جسم الشيء»[2].

ولكن يبقى علينا إثبات عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في المقطع الثاني المتمثّل بوجود الوحي في قلب النبي (صلى الله عليه وآله). لتوضيح ذلك، نلحظ أنّ فرض وقوع النقص والعيب في المقطع الثاني يستلزم عدم سلامة الوحي في المقطع الثالث أيضاً، وهذه دلالة عقلية تامة على حفظ الوحي في المقطع الثاني.

بل يمكن القول بأنّ تعبير ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ هو كناية

---

(١) الجن: ١٧.

(٢) الطاهر، ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ج٢٩، ص٢٣٢.

عن حفظ الوحي في المقاطع الثلاثة جميعاً.

للرسل جميعاً

من المهم أن نمكث في لمحة تحليلية مع قوله سبحانه: ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ فمقتضى القاعدة أن يكون التعبير بصيغة المفرد: «أن قد أبلغ»، لأن ما قبلها جاء بصيغة المفرد، وهو قوله سبحانه: ﴿يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، فما هي الحكمة من وراء ذلك؟

تقرّر الآية المباركة من خلال التعبير بضمير الجمع بأن الحفظة ليسوا مجعولين لرسول واحد، بل هم لجميع الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، فلو عبّرت بصيغة المفرد لأمكن أن يدعى بأنّ الحفظ مختص برسول واحد.

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾. وهذا تعميم بعد تخصيص، أي إن الله (سبحانه وتعالى) بكل شيء محيط.

ثم قالت: ﴿وَأَحْصَى كلّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، أي أنّ هذه الإحاطة ليست إحاطة إجمالية بل هي تفصيلية، بمقتضى أن المعلوم إذا صار عدداً فسيكون من أقوى المعلومات وضوحاً.

إلى هنا تكون الآية الكريمة قد دلّت على عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في المرحلة الثانية.

الأئمّة وعلم الغيب

الأنبياء (عليهم السلام) يعلمون الغيب لأنهم مرضيون عند الله (عزّ وجلّ)

ولذا يطلعهم على غيبه، فهل يعدّ الأئمّة (عليهم السلام) كالأنبياء من هذه الجهة؟

بالإمكان إثبات أنّهم (عليهم السلام) كذلك وأنهم يعلمون الغيب بما يأتي:

١. روي عن الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، في سياق حديث: «ثم نظر الرضا (عليه السلام) إلى ابن هذاب فقال: إن أنا أخبرتك أنك ستبتلي في هذه الأيام بدم ذي رحم لك، أكنت مصدقاً لي؟ قال: لا، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، قال (عليه السلام): أوليس الله يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»[١].

قال السيد الطباطبائي بعد أن نقل هذا الحديث: «والأخبار في هذا الباب فوق حدّ الإحصاء ومدلولها أن النبي (صلى الله عليه وآله) أخذه بوحي من ربه وأنهم أخذوه بالوراثة منه (صلى الله عليه وآله)»[٢].

٢. إنّ من واضحات القرآن الكريم أنه نزل تبياناً لكل شيء، وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون، وأهل البيت (عليهم السلام) لا يفارقون القرآن بمقتضى حديث الثقلين المتواتر، فلو افترضنا أنّهم (عليهم السلام) لا يعلمون كلّ شيء فيلزم من ذلك مفارقتهم القرآن

---

(١) إثبات الهداة: ج١، ص٣٨٦، ح١٠٤، وكذلك بحار الأنوار: ج٤٩، ص٧٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص١٣٢.

الكريم لا محالة، وهذا ما ينفيه حديث الثقلين صريحاً، حيث قوله (صلى الله عليه وآله): «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[١].

٣. يقسّم القرآن الكريم عالم الخلق إلى قسمين:

الأول: عالم الغيب، ويعبّر عنه أيضاً بعالم الباطن والملكوت.

الثاني: عالم الشهادة، ويعبّر عنه أيضاً بعالم الظاهر والملك.

في سياق متصل يقرّر القرآن الكريم أيضاً، أنّ الإنسان الذي يصل إلى مقام اليقين سيكون مطلعاً على بطون عالم الملكوت وأسرار الغيب. يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ﴾[٢].

فإذا ضممنا إلى ذلك قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٣]، نكون قد أثبتنا أنّ الأئمّة (عليهم السلام) من الواصلين إلى مقام اليقين، وحينئذ تفتح لهم أبواب الغيب وأسرار الملكوت لأنهم من الموقنين.

إلى هنا ينتهي البحث عن عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في المرحلة

---

(١) سنن الترمذي: ج٥، ص٦٦٤، ح٣٧٨٦، وكذلك: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار: ج١، ص١٨٥.

(٢) الأنعام: ٥٧.

(٣) السجدة: ٢٤.

الثانية بجميع مقاطعها الثلاثة. والعصمة بهذا المستوى من العمق والسعة، هو ما تؤمن به مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بالنسبة للأنبياء (عليهم السلام).

لكن لكي تتمّ جهات البحث من الناحية المنهجية نعرض لدراسة بعض الآراء التي طرحتها المدارس الإسلامية الأخرى حول هذه المسألة.

مناقشة الفخر الرازي

يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. و«الأمنية» في القرآن قد تأتي ويراد منها التلاوة والقراءة، على ما أشار إليه الراغب الأصفهاني بقوله: «ألقى الشيطان في أمنيته» أي: في تلاوته[1].

ذكر الفخر الرازي في تفسير هذه الآية المباركة ما نصّه: «ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[2] فقرأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى بلغ

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة «منى»: ص ٧٨٠.

(٢) النجم: ١.

قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾[١] ألقى الشيطان على لسانه (تلك العرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى) فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاصي فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتاه جبريل (عليه السلام) فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك ؟! فحزن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً عظيماً حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الآية. هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليها بالقرآن والسنة والمعقول»[٢].

لقد ذكرت هذه الرواية العجيبة أن الشيطان يمكن أن يتدخل في

---

(١) (النجم: ١٩، ٢٠).

(٢) التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي: ج٢٣، ص٤٩، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.

الوحي ويخطّئ النبي (صلى الله عليه وآله) عند إبلاغه الوحي للناس، وقد ذهب إلى الأخذ بهذه الرواية عامة المفسرين الظاهريين من الاتجاه الآخر، كما نص عليه الفخر الرازي في عبارته المتقدّمة.

الغريب أنّهم أخذوا بها بالرغم من منافاة متنها لصريح القرآن الكريم، وهو ينص: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[١].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[٢].

فهل ترانا نصدق القرآن الكريم أم نصدق المفسرين الظاهريين؟!!

وهل النبي الذي يعرفه هؤلاء المفسرين هو النبي نفسه الذي يتحدّث عنه القرآن الكريم؟!

يكتب السيد الطباطبائي: «هذه الرواية مرويّة بطرق عديدة عن ابن عباس وجمع من التابعين، وقد صححها جماعة منهم كالحافظ ابن حجر العسقلاني، لكن الأدلة العقلية على عصمته تكذّب متنها»[٣].

الطريق الثالث

يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٤].

---

(١) النجم: ٣- ٤.

(٢) الحاقّة: ٤٤- ٤٦.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج١٤، ص٣٩٦.

(٤) النساء: ٦٤.

مرة أخرى يتصدّى القرآن الكريم لإماطة اللثام عن حقيقة من الحقائق المرتبطة بمسألة النبوّة في القرآن، فلماذا بُعث الأنبياء (عليهم السلام) وما هي الغاية المرجوّة من وراء بعثتهم إلى البشرية؟

تقرّر هذه الآية الكريمة من خلال أسلوب الحصر الذي عبّرت به، بأنّ الهدف من ذلك هو أن يُطاع الأنبياء (عليهم السلام) من قبل المجتمعات التي أرسلوا إليها، وأنّ هذه الطاعة ليست طاعة مستقلّة بل هي «بإذن الله».

لكن كيف تدلّ الآية المذكورة على عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في المرحلتين الأولى والثانية؟ يتطلّب الجواب بيان مقدمة ترتبط بالطاعة.

مقدمة في الطاعة

لقد عرض القرآن الكريم في غير واحدة من آياته، إلى أنّ وجوب الطاعة الذي يؤمر به الناس يتمّ على نحوين:

١. وجوب الطاعة المطلقة.

٢. وجوب الطاعة المقيدة.

ونعني بوجوب الطاعة المقيدة؛ خصوص الطاعة التي يأمر بها الله (سبحانه وتعالى) لمخلوق من مخلوقاته على نحو معين وفي ظل شروط خاصة، وذلك كوجوب طاعة الوالدين أو وجوب طاعة الحاكم الشرعي العادل. فمن المعلوم أنّ الطاعة في مثل هذه الحالات إنما هي واجبة في حدود معينة وليست مطلقة، فطاعة الوالدين واجبة ما لم

يأمروا بالمعصية، وهكذا طاعة الحاكم العادل، ومن هنا قيل: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فلو أمر هؤلاء بمعصية الله (عزّ وجلّ) فسوف يسقط حينئذ وجوب طاعتهم عن المكلف. يقول سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾[1].

على ضوء هذه الحقيقة، لو أمر الله (سبحانه وتعالى) بوجوب الطاعة المقيّدة فسنستكشف حينئذ أنّ من تجب طاعته ليس معصوماً، لأنه قد يعصي الله (عزّ وجلّ) ولذا كانت طاعة مقيّدة.

أما الطاعة المطلقة، فهي الطاعة التي لا حدود تقف عندها، كما هو الحال في وجوب طاعة الله (تبارك وتعالى)، فإنها مطلقة وأبدية. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

ارتكازاً لهذا المعنى من الطاعة المطلقة نستكشف أن الموجود الذي تجب طاعته مطلقاً لابدّ أن يكون معصوماً لا محالة، لأنه لو أمكن أن تصدر منه المعصية أو الخطأ والاشتباه لما صحّ الأمر بطاعته مطلقاً، لأنه سيكون أمراً بالمعصية، وهو ممتنع من الحكيم عقلاً.

لذا نجد القرآن الكريم عندما يتعرّض لذكر الأمور المرتبطة

---

(١) العنكبوت: ٨.

(٢) النحل: ٩٠.

بالعدل، فإنه يجعلها في قائمة الأمور المحبوبة عند الله (عزّ وجلّ): يقول سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[١] و﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢] و﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[٣] و﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

أما الأمور المرتبطة بالظلم والمنكر، فإنه يذكرها في قائمة مبغوضات الله (سبحانه وتعالى)، يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٥]، ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٦] و﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٧] و﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٨].

سيراً على هدي هذه الحقيقة القرآنية، نجد أنّ الله (سبحانه وتعالى) قد أمر بطاعة الأنبياء (عليهم السلام) طاعة مطلقة لا مقيّدة، حيث قوله سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١٠].

---

(١) آل عمران: ٧٦.

(٢) البقرة: ١٥٣.

(٣) البقرة: ٢٢٢.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) آل عمران: ٥٧.

(٦) المائدة: ٦٤.

(٧) البقرة: ١٩٠.

(٨) الأنفال: ٥٨.

(٩) النساء: ٨٠.

(١٠) النساء: ٦٤.

تأسيساً على ذلك فإنّ الأنبياء (عليهم السلام) معصومون بالعصمة المطلقة، بمقتضى أن من يصدر منه المعصية أو الخطأ والسهو والنسيان لا معنى للأمر بطاعته مطلقاً.

رأي الرازي

ذكر الفخر الرازي عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أنّ هذه الآية دالّة على عصمة الأنبياء (عليهم السلام) من المعاصي والذنوب، حيث كتب: «الآية دالة على أن الأنبياء (عليهم السلام) معصومون عن المعاصي والذنوب لأنها دلت على وجوب طاعتهم مطلقاً، فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية فتصير تلك المعصية واجبة علينا، وكونها معصية يوجب كونها محرّمة علينا، فيلزم توارد الإيجاب والتحريم على الشيء الواحد، وأنه محال»[1].

طاعة أولي الأمر

تجب طاعة الأنبياء (عليهم السلام) مطلقاً من دون قيد ولا شرط بنص القرآن الكريم كما اتضح، وفي ضوء هذه الحقيقة وبضميمة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ج١٠، ص١٦١. كذلك الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص١٣٧.

مِنْكُمْ﴾[1]، من حقنا أن نتساءل: ما هي حدود طاعة أولي الأمر؟ وهل هي مطلقة كطاعة الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله)؟

لقد عطفت الآية الكريمة طاعة أولي الأمر على طاعة الله ورسوله، ومن حيث أنهما مطلقتان كما عرفنا، فتكون طاعة أولي الأمر مطلقة أيضاً، وهذا يعني أنّ من يطع أولي الأمر فقد أطاع الرسول (صلى الله عليه وآله)، ومن يطع الرسول (صلى الله عليه وآله) فقد أطاع الله تعالى.

ما دام الأمر كذلك فلابدّ أن نسأل: من هم أولو الأمر المقصودون بالآية المباركة؟ لا ريب في أنّ مَن تجب له الطاعة المطلقة لابدّ أن يكون معصوماً بالعصمة المطلقة حسب ما تقدّم، ومن ثمّ فمن غير المعقول أن يكون المراد بأولي الأمر في الآية الكريمة حكّام العدل غير المعصومين، فضلاً عن حكّام الجور والظلم. فإنّ حكّام العدل غير المعصومين إنما تجب طاعتهم في حدود معينة لا مطلقاً كما هو معلوم، ومن ذلك نستنتج أنّ المراد من أولي الأمر في الآية المباركة هو خصوص الأئمّة المعصومين من أهل البيت (عليهم السلام) بعد أن ثبتت عصمتهم المطلقة.

من جهته أشار الفخر الرازي في تفسيره إلى أنّ أولي الأمر لابدّ أن يكونوا من المعصومين، حيث قال: «والدليل على ذلك أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته

---

(١) النساء: ٥٩.

على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كلّ من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ أولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً»[1].

من هنا يظهر أنّ الاعتقاد بضرورة وجود المعصوم بعد النبي (صلى الله عليه وآله) ليس مختصّاً بالإمامية ومدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، بل ذهب إلى ذلك جملة من علماء المدارس الأخرى كما هو صريح كلام الفخر الرازي المتقدم. فضرورة وجود المعصوم بعد عصر الرسالة ليس من مختصّات الطائفة الحقّة كما قد يُتوهم ذلك.

في ظلّ الاعتقاد بوجود المعصوم، لابدّ أن نسأل: من هو هذا المعصوم الذي نعتقد بضرورة وجوده بعد النبي (صلى الله عليه وآله)؟

أو من هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم مطلقاً حسب الآية المتقدّمة؟

لنقرأ أولاً ما ذكره الفخر الرازي حول تحديد من هو المعصوم المقصود في الآية الكريمة، ومن هم «أولو الأمر» الذين تجب طاعتهم

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ج١٠، ص١٤٤.

مطلقاً كطاعة الله (سبحانه وتعالى)، ونرى بعد ذلك ما مدى التوفيق الذي حالف علماء المدارس الإسلامية غير مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، في تحديد المصداق الصحيح لأولي الأمر.

جاء في «التفسير الكبير»: «ثم نقول: ذلك المعصوم إما مجموع الأمة أو بعض الأمة، لا جائز أن يكون بعض الأمة، لأنا بيّنا أن الله تعالى أوجب طاعة أولي الأمر في هذه الآية قطعاً، وإيجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أنا في زمننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن المعصوم الذي أمر الله المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الأمة، ولا طائفة من طوائفهم، ولما بطل هذا وجب أن يكون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾ أهل الحلّ والعقد من الأمة، وذلك يوجب القطع بأنّ إجماع الأمة حجّة».

ثم يضيف: «وأما حمل الآية على الأئمّة المعصومين على ما تقوله الروافض ففي غاية البعد»[1].

مناقشة الرازي

يقرّر الرازي إذاً، بأنّ المعصوم المقصود هو إجماع الأمّة لا غير.

---

(١) التفسير الكبير: ج١٠، ص١٤٥.

من الواضح أنّ الرازي هنا وإن كان مصيباً في دلالة الآية على أن أولي الأمر معصومون مطلقاً، إلا أنّه أخفق في تحديد المراد من «أولي الأمر» مع غزارة علمه وسعة إطلاعه!! بل إنّه استبعد أن يكون أهل البيت (عليهم السلام) هم المقصودون من أولي الأمر، واستقرب في الوقت نفسه أن يكون إجماع الأمة هو المعصوم.

مفارقة الاستبعاد والاستقراب التي ارتكبها الفخر الرازي في المقام، تستدعي حقاً التأمّل بل التعجب!

فكيف يكون حمل الآية على الإمام علي بن أبي طالب والأئمّة من ولده (عليهم السلام) في غاية البعد!! وفي الوقت نفسه يستقرب بل يقطع بأنّ المراد من الآية هو إجماع الأمة، وفي الأمّة من هو على شاكلة يزيد بن معاوية أو الحجاج وأمثالهم من حكّام الظلم والجور وأعمدة الطغيان والتجبّر؟!!

وأيّ عصمة هذه التي تثبت لأمثال هؤلاء؟!

وأيّ «أولي أمر»، هؤلاء الذين يأمرنا الله بطاعتهم مطلقاً؟!

ثمّ لماذا هذا الاضطراب في معرفة من هم «أولو الأمر» مع أنّ الآية الكريمة قرّرت بعد ذلك وقالت: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

فليكن معنى «أولي الأمر» من الأمور المتنازع فيها، ولنردّه إلى الله والرسول، ونرى ماذا يقرّر الرسول (صلى الله عليه وآله) في ذلك، إن كنّا نؤمن بالله واليوم الآخر؟!!

وإذا كان الرازي يقول بأن الأمّة هي المعصومة، فماذا نفعل بحديث الثقلين الذي رواه كلّ من «صحيح مسلم» و«سنن الدارمي»، و«خصائص النسائي»، و«سنن الترمذي»، و«سنن أبي داوود»، و«سنن ابن ماجة»، و«مسند أحمد»، و«مستدرك الحاكم»، و«ذخائر الطبري»، و«حلية الأولياء»، و«كنز العمّال»، وغيرهم، بل قيل فيه: «إنّ هذا الحديث رواه عن النبي (صلى الله عليه وآله) أكثر من ثلاثين صحابياً، وما لا يقل عن ثلاثمائة عالم من كبار علماء أهل السنة في مختلف العلوم والفنون، في جميع الأعصار والقرون... وفيهم أرباب الصحاح والمسانيد وأئمة الحديث والتفسير والتاريخ، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين»[1].

ثم ماذا نفعل بآية المباهلة وآية التطهير، وحديث الكساء وحديث المنزلة؟!!

وهل غابت كلّ هذه الحجج عن نظر الرازي المفسّر الكبير في تفسيره الكبير، لكي يذهب ويقرّر أن المعصوم هو إجماع الأمّة؟!

لنرجع إلى ما ذكره الرازي من الأدلة التي أقامها على ما ذهب إليه في تحديد المراد من «أولي الأمر»، حيث ذكر:

١. قال: «إنه [تعالى] قال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ

---

(١) الميلاني، السيد على الحسيني، نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار: ج١، ص١٨٥، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ، وكذلك الأصول العامّة للفقه المقارن: ص١٦٤، للسيد محمد تقي الحكيم (رحمه الله).

وَالرَّسُولِ﴾، ولو كان المراد بأولي الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يقال: فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الإمام»[١].

والجواب: كأنّ الفخر الرازي هنا لم يقرأ في القرآن الكريم آية حول أولي الأمر غير هذه الآية، وغاب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٢].

القرآن الكريم يصدّق بعضه بعضا، ومن غير المنطقي أن نأخذ ببعضه دون الآخر، لأنّ هذا مما نهى عنه الله (سبحانه وتعالى) في قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[٣].

أما ما هي الحكمة في عدم قوله تعالى هنا «وردوه إلى أولي الأمر أو إلى الإمام»، فذلك لأنّ التنازع قد يقع في نفس تحديد من هم أولي الأمر -كما هو الحاصل بالفعل- وحينئذ لا معنى أن نرجع في حل التنازع إلى نفس «أولي الأمر» كما هو واضح.

٢. ومن أدلته أنه، قال: «إنه تعالى أمر بطاعة أولي الأمر، وأولو الأمر جمع، وعندهم [يعني الرافضة] لا يكون في الزمان إلا إمام واحد، وحمل الجمع على الفرد خلاف الظاهر»[٤]!

---

(١) التفسير الكبير: ج١٠، ص١٤٤- ١٤٥.

(٢) النساء: ٨٣.

(٣) الحجر: ٩١.

(٤) التفسير الكبير: ج١٠، ص١٤٥.

والجواب: إنّ اللغة العربية تحتوي على قواعد كثيرة، ومن هذه القواعد هناك قاعدة تسمى بقاعدة العموم الاستغراقي، التي تعني في مضمونها العام أنه لو قيل لشخص: أكرم العلماء والصلحاء، فهذا يعني أنه لو وجد عالماً فيجب عليه إكرامه، ولا يشترط أن يجتمع العلماء والصلحاء في مكان وزمان واحد لكي يجب إكرامهم، بل إنّ وجوب الإكرام ينحلّ عليهم جميعاً ويمكن إكرامهم واحداً بعد الآخر.

على ضوء هذه القاعدة فليس المراد من الآية الكريمة ﴿أُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أن يجتمع أولو الأمر في زمان واحد حتى تجب طاعتهم، بل تجب طاعة كلّ واحد منهم في زمانه الخاص. وهناك شواهد أخرى من القرآن الكريم تدلّ على المعنى المذكور، منها:

قوله سبحانه: ﴿فَلاَ تُطِعْ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾[3].

فهل تعني الآية الأولى أن المكذبين تحرم طاعتهم في حالة اجتماعهم في زمان واحد فقط؟! كما يدّعي الفخر الرازي! أم المعنى هو حرمة إطاعة المكذبين كلّ في زمانه الخاص؟ وكذلك الأمر في الآيتين الأخريين. فالقرآن الكريم يستعمل صيغة الجمع ويريد منها

---

(١) القلم: ٨.

(٢) الشعراء: ١٥١.

(٣) البقرة: ٢٣٨.

الاستغراق في كثير من الآيات.

إنّ خير ما نختم به البحث في معنى «أولي الأمر» هو هذا الحديث الشريف: عن أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد ذكر الحجج، فقال له السائل: «مَن هؤلاء الحجج؟ قال: هم رسول الله ومن حلّ محلّه من أصفياء الله وهم ولاة الأمر الذين قال الله فيهم: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وقال فيهم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، قال السائل: ماذا الأمر؟ قال علي (عليه السلام): الذي به تنزل الملائكة في الليلة التي يفرق فيها كلّ أمر حكيم من خلق أو رزق وأجل وعمل وحياة وموت، وعلم غيب السماوات والأرض، والمعجزات التي لا ينبغي إلا لله وأصفيائه والسفرة بينه وبين خلقه»[1].

الخلاصة

١. يتناول البحث في هذا القسم، العصمة على مستوى تلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه إلى الناس من دون خطأ أو اشتباه في ذلك كلّه.

العصمة على هذا المستوى، تنفّك إلى المقاطع الثلاثة التالية:

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج١، ص٥٠٧، للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت: ١١١٢هـ)، ط٢، المطبعة العلمية، قم، وكذلك الاحتجاج لأحمد بن علي الطبرسي (ت٥٦٠ هـ): ج١، ص٣٧٥، تحقيق السيد محمد باقر الخرسان، منشورات دار النعمان للطباعة والنشر.

* تلقي الوحي من الله، حتى وصوله إلى النبي: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[١].

* وجود الوحي عند النبي بعد ما يتنزّل على قلبه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾[٢].

* خروج الوحي المنزَل من قلب النبي، حتّى يصل إلى الناس: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٣].

ما تقصده الدراسة على مستوى هذا البحث، هو إقامة الدليل القرآني على عصمة النبي في المقاطع الثلاثة جميعاً. وهذا ما نهضت به فعلاً عبر ثلاثة طرق.

٢. ينطلق الدليل الأول من حاجة الإنسان إلى الوحي، هذه الحاجة التي يمكن إثباتها من الفلسفة الوجودية للإنسان والغاية المرجوة له. فالإنسان خلق ليبقى، لكن بعد أن ينتقل من نشأة إلى أخرى، وما دامت الآخرة لا تقع تحت سلطان العقل أو التجربة البشرية فهو بحاجة إلى إخبار ما ورائي، أو إلى الوحي.

من هذا المنطلق جاء بعث الرسل وإنزال الكتب لتتمّ الحجة الكاملة لله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾. والحجة إنما تتم إذا ما كان الوحي وحامله مصوناً عن الخطأ أو النقص والزيادة، في المقاطع الثلاثة

---

(١) الشعراء: ١٩٣.

(٢) الأعلى: ٦.

(٣) النجم: ٣- ٤.

بأجمعها: التلقي والحفظ والتبليغ.

بهذا تثبت العصمة على هذا المستوى، بمقاطعها الثلاثة.

٣. ينطلق الدليل الثاني من صلة الأنبياء بعالم الغيب، هذه الصلة التي يرسم القرآن بعض آفاقها، بقوله سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[1]، إذ يربط النص القرآني الوحي بعالم الغيب، ليسجّل أنّ بمقدور الرسل الذين ارتضاهم الله سبحانه واصطفاهم واستخلصهم لنفسه، الاطلاع على مكنونات عالم الغيب بتعليم منه سبحانه.

وهذا الغيب الذي يُزودَّ به الأنبياء، يبقى محفوظاً إلى أن يصل الناس سالماً، بدليل قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾[2]، فالله سبحانه قد تعهد بحفظ الوحي وحامله من بين يديه ومن خلفه، حتى يبلغه سالماً من كلّ آفة ونقص.

من جهة أخرى إن فرض وقوع النقص والعيب في المقطع الثاني من المقاطع الثلاثة التي تتألف منها العصمة في هذه المرحلة، فإن ذلك يستلزم عدم سلامة الوحي في المقطع الثالث أيضاً. وهذه دلالة عقلية تامّة على حفظ الوحي في المقطع الثاني، هذا إذا لم يكن قوله سبحانه: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ بنفسه تعبيراً عن حفظ الوحي بمقاطعه

---

(١) الجن: ٢٨.

(٢) الجن: ٢٧.

الثلاثة جميعاً، ليثبت المطلوب.

٤. ينطلق الطريق الثالث من قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1]، الذي يفيد الحصر. وما دامت الطاعة طاعتين؛ مطلقة ومقيدة، والآية تدعو إلى طاعة الرسل مطلقاً، فستكون الحصيلة: إنّ من يدعو القرآن إلى طاعته بالطاعة المطلقة لابدّ أن يكون معصوماً بالعصمة المطلقة لا محالة، وإلا لو أمكن أن تصدر منه المعصية أو الخطأ أو الاشتباه لمّا صح الأمر بطاعته مطلقاً، لأنه سيكون أمراً بالمعصية، وهو ممتنع من الحكيم عقلاً. وهو المطلوب.

٥. أثير على ضفاف البحث، عدد من الأفكار والمناقشات التفصيلية حيال مفهوم الطاعة بين المعصوم وغيره، ممّا يسهم في إعادة صياغة رؤية المسلمين لكثير من المفاهيم التي ترتبط بطاعة الحاكم وأولي الأمر وما إلى ذلك، ممّا ينفع المسلم المعاصر ويساعده في مواجهة مقتضيات بصيرته الدينية في الوقت الحاضر.

---

(١) النساء: ٦٤.

البحث الثالث

العصمة في التطبيق

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1].

تتكفّل هذه الفقرة من البحث إثبات عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في المرحلة الثالثة، أي عصمتهم في تطبيق ما نزل إليهم من الوحي والشريعة.

يمكن أن نختزل مدلول هذه المرحلة، بالسؤال التالي: هل من الممكن أن يصلي النبي (صلى الله عليه وآله) صلاة الفجر مثلاً، بأكثر مما أمرت به الشريعة؟ وهل يمكن أن يستمر به النوم العميق حتّى يفوته

---

(١) النساء: ١١٣.

وقت الصلاة؟!

من الواضح أنّ هذه المرحلة لا علاقة لها بالمرحلتين السابقتين، فبعد أن وصلت الشريعة وتمّ الوحي من غير زيادة أو نقصان، تأتي هذه المرحلة المرتبطة بتطبيق الشريعة الإلهية خارجاً.

لقد اختلفت متبنيات مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) في هذه المسألة مع باقي المدارس الإسلامية الأخرى، فقد آمنت الأخيرة بإمكان خطأ النبي (صلى الله عليه وآله) في عدد ركعات الصلاة أو في تطبيق الحدود التي أقرّتها الشريعة إلى غيرها من موارد الخطأ في التطبيق. فيما ذهب مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) إلى استحالة صدور ذلك من النبي (صلى الله عليه وآله).

الخطأ في تطبيق الشريعة في ضوء النصوص

نستعرض أولاً الروايات التي تمسّك بها من ذهب إلى خطأ النبي (صلى الله عليه وآله) في تطبيق الشريعة، كسهوه في وقت الصلاة وعدد ركعاتها. والملاحظ في هذه الروايات أنها وردت في مصادر الفريقين ولم تختص بأحدهما دون الآخر.

* **الرواية الأولى**: «عن عمران بن حصين: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان في مسير، فناموا عن صلاة الفجر واستيقظوا بحرّ الشمس فارتفعوا قليلاً حتى استقلّت الشمس، ثم أمر مؤذناً فأذّن فصلى ركعتين قبل الفجر ثم أقام فصلى الفجر»[1].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ج١٨، ص٣٣٢، وكذلك الأسماء والصفات للبيهقي:

* **الرواية الثانية:** عن عبد الله بن مسعود قال: «صلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمساً الظهر أو العصر، فلمّا انصرف قيل له يا رسول الله أزيدَ في الصلاة؟ قال: لا، قالوا: فإنك صليت خمساً، قال: فسجد سجدتي السهو ثم سلم»[١].

* **الرواية الثالثة:** عن أبي هريرة قال: «صلى بناء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إحدى صلاتي العشي، قال فصلّى بنا ركعتين ثم خرج سرعان الناس وهم يقولون قصرت الصلاة ... وفي الناس أبو بكر وعمر فهاباه أن يكلماه، فقام رجل كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسمّيه ذو اليدين، فقال يا رسول الله: أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: لم أنس ولم تقصر الصلاة، قال: بل نسيت يا رسول الله، فأقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على القوم فقال: أصدق ذو اليدين؟ فأومأوا أي نعم ... فرجع إلى مقامه فصلّى الركعتين الباقيتين ثم سلم»[٢].

أما ما ورد في مصادر مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) فهي عدة

ص١٤٢، وتأريخ الإسلام للذهبي، ج٢، ص٣٠١.

(١) صحيح البخاري: ج١، ص١٠٥، ومسند أحمد بن حنبل: ج١، ص٤٠٩، وسنن البيهقي: ج٢، ص٣٤١، وسنن النسائي: ج٣، ص٣١.

(٢) سنن البيهقي: ج٢، ص٣٥٦، وكذلك شرح النهج: ج٧، ص١٩، وشرح صحيح مسلم للنووي بهامش الساري: ج٣، ص٢٢٦، وسنن النسائي: ج٣، ص٢٠، قال الشيخ محمود أبو ريّة في كتابه «أبو هريرة» ص١١٣: إنّ هذا الحديث من غرائب أبي هريرة لأنّ ذا اليدين استشهد ببدر قبل أن يسلم أبو هريرة بزمان!!.

روايات، منها:

* **الرواية الأولى:** عن الحضرمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) سها فسلّم في ركعتين، ثم ذكر حديث ذي الشمالين، فقال: ثم قام فأضاف إليها ركعتين»[١].

* **الرواية الثانية:** عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي (عليهم السلام) قال: «صلى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) الظهر خمس ركعات ثم انفتل فقال له بعض القوم: يا رسول الله هل زيد في الصلاة شيء؟ فقال: وما ذاك؟ قال: صلّيت بنا خمس ركعات، قال: فاستقبل القبلة وكبّر وهو جالس، ثم سجد سجدتين ليس فيهما قراءة ولا ركوع ثم سلّم»[٢].

ينبغي أن نسجل هنا بأن عدد الروايات الواردة في هذا المجال عن طرق مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، هو أقل منها عند المدارس الإسلامية الأخرى.

استناداً إلى هذه النصوص التي تقرر صدور الخطأ والسهو من النبي (صلى الله عليه وآله) في تطبيق الشريعة، من الطبيعي أن يسري هذا الحكم إلى باقي الأنبياء (عليهم السلام) بالضرورة، لأنّه (صلى الله عليه وآله) خاتمهم وأفضلهم، فهم مشمولون بإمكان الخطأ والسهو والنسيان بالأولوية.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٠١.

(٢) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٠١، لقد عقّب صاحب البحار على هذه الروايات ذكر فيه بكلام ذكر فيه ما جاء عن الشيخ الطوسي في مخالفة هذه الروايات للأدلة العقلية القطعية.

وعندئذ لابدّ من الوقوف على أمثال هذه النصوص ودفع هذه الغائلة، بخاصّة وأنّ الحديث في هذا البحث منصبٌ على عصمة الأنبياء (عليهم السلام).

قبل معالجة هذا النمط من الروايات المذكورة ينبغي أن نعرف بأنّ من أهم القضايا الأساسية التي تواجه أمثال هذه النصوص هي مسألة الدس والتزوير التي لحقت المصادر الحديثية عند كلا الفريقين. وفي هذا السياق انتبه علماء الحديث وأئمته إلى هذه القضية وألفّوا في ذلك كتباً عديدة أثبتوا من خلالها وجود الدس والتزوير والوضع على لسان النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمّة (عليهم السلام)، حتّى أنه ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «أيها الناس قد كثرت الكذّابة عليّ، فمن كذّب عليّ متعمداً فليتبؤا مقعده من النار»[1].

وكذلك ما ورد عن يونس بن عبد الرحمن عندما قالوا له: «يا أبا محمد ما أشدك في الحديث فأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يحملك على رد الأحاديث؟ فقال: حدّثني هشام بن الحكم أنه سمع الصادق (عليه السلام): لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة». ثم راح يقول: «فإنّ المغيرة بن سعيد دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا (صلى الله عليه وآله)، فإنّا إذا حدثنا قلنا: قال الله (عزّ

---

(١) الاعتقادات في دين الإمامية، الشيخ الصدوق: ص٩٣.

وجلّ) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله)»[١].

حيث يتّضح بأنّ هذا الدسّ والتزوير ثابت لا شكّ فيه، فلابدّ من أخذه بالاعتبار عند مناقشة الروايات المذكورة.

مناقشة روايات السهو والنسيان

يمكن معالجة الروايات المذكورة من خلال مناقشتين:

المناقشة الأولى: المعارضة بالأقوى

إنّ هناك كمّاً هائلاً من الروايات الواردة في مصادرنا الحديثية تنفي السهو والخطأ عن النبي والأئمّة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) بإزاء الروايات المحدودة التي تثبت ذلك. فالروايات التي عرضت لإثبات عصمتهم المطلقة حتى في تطبيق الشريعة، هي بمثابة السيل الهائل بالنسبة إلى العدد المحدود والضئيل الذي تحدث عن صدور السهو والخطأ.

على ضوء ذلك تقضي الوظيفة المنطقية الأخذ بالروايات الأصدق والأوثق والأكثر عدداً والإعراض عمّا دونها.

وفيما يلي نعرض لعدد من تلك الروايات:

١. عن الصادق (عليه السلام)، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في بيان صفات الإمام، قال: «فمنها أن يعلم الإمام المتولي عليه أنه معصوم من الذنوب كلّها صغيرها وكبيرها، لا يزلّ في الفتيا ولا يخطئ في الجواب

---

(١) رجال الكشي: ج٢، ص٤٨٩.

ولا يسهو ولا ينسى ولا يلهو بشيء من أمر الدنيا»[١].

٢. عن الرضا (عليه السلام): «وإن العبد إذا اختاره الله (عزّ وجلّ) لأمور عباده، شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصّه الله بذلك ليكون حجّته على عباده»[٢].

٣. عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: «سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخي عليه ستره، فقال: يا مفضل إن الله (تبارك وتعالى) جعل في النبي (صلى الله عليه وآله) خمس أرواح: روح الحياة فبه دبّ ودرج، وروح القوة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل، وروح القدس فبه حمل النبوّة، فإذا قبض النبي (صلى الله عليه وآله) انتقل روح القدس فصار إلى الإمام وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو»[٣].

قال الشيخ محمد حسن النجفي (قدس سره) صاحب موسوعة «الجواهر» في هذا الصدد: «فالإنصاف أنه لا يُجترأ على نسبة السهو إليهم لأن الروايات تقول تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم وحالهم في المنام

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٠٨

(٢) الأصول من الكافي: ج١، ص٢٠٢.

(٣) الأصول من الكافي: ج١، ص٢٧٢.

كحالهم في اليقظة... وأنهم علموا ما كان وما يكون من أول الدهر إلى انقراضه، وأنهم جعلوا شهداء على الناس في أعمالهم، وأن ملائكة الليل والنهار كانوا يشهدون مع النبي (صلى الله عليه وآله) صلاة الفجر، وأن الملائكة كانوا يأتون الأئمّة (عليهم السلام) عند وقت كلّ صلاة وأنهم ما من يوم ولا ساعة إلا وهم ينبهونهم لها ليصلوا بإمامتهم، وأنهم كانوا مؤيدين بروح القدس يخبرهم ويسددهم»[1].

والسؤال: كيف يمكن لذي مسكة أن يقبل نوم النبي (صلى الله عليه وآله) عن صلاة الفجر في الوقت الذي ينصّ فيه القرآن الكريم، على أن صلاة الليل واجبة على رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟!! يقول سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[2].

لهذا كم يبدو غريباً ما روي من أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نام عن صلاة الفجر غفلة، كما في الرواية التالية: «عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا دخل وقت صلاة مكتوبة فلا صلاة نافلة حتى يبدأ بالمكتوبة، قال: فقدمتُ الكوفة فأخبرتُ الحكم بن عتيبة وأصحابه فقبلوا ذلك منّي، فلما كان في القابل لقيت أبا جعفر (عليه

---

(١) النجفي، الشيخ محمد حسن، جواهر الكلام في شرائع الإسلام: ج١٣، ص٧٢.

(٢) الإسراء: ٧٨- ٧٩.

السلام)، فحدثني أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عرس[١] في بعض أسفاره وقال: من يكلؤنا[٢]؟ فقال بلال: أنا، فنام بلال وناموا حتّى طلعت الشمس، فقال: يا بلال ما أرقدك؟ فقال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بأنفاسكم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): قوموا فتحوّلوا عن مكانكم الذي أصابكم فيه الغفلة»[٣].

تومئ الرواية إلى أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد أصيب بالغفلة مع أصحابه، تنص على ذلك خاتمتها! والسؤال: كيف ذا، وكتاب الله ينادي بين ظهرانينا أنّ جزاء الغافلين عن ذكر الله تعالى نار جهنم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤]!

كما يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾[٥]!

وكيف يكون خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) غافلاً، مع أنّ القرآن الكريم ينهاه عن إطاعة من أغفل الله قلبه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلاَ

---

(١) عرس: التعريس نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من قولهم: عرس القوم إذا نزلوا آخر الليل للاستراحة، مجمع البحرين: ج٤، ص٨٦.

(٢) يكلؤنا كلاء: يحفظنا، مجمع البحرين: ج١، ص٣٦٠.

(٣) وسائل الشيعة: ج٤، ص٣٨٥- ٣٨٦، الباب ٦١ من أبواب المواقيت، ح٦.

(٤) يونس: ٧- ٨.

(٥) الأعراف: ٢٠٥.

تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾[١]؟!

المناقشة الثانية: العرض على القرآن

تأتي هذه المناقشة بعد التنزّل عمّا ورد في المناقشة الأولى لعلاج روايات السهو والنوم، التي انطلقت من أصل يفيد بأنّ الروايات التي دلّت على عصمة النبي (صلى الله عليه وآله) مطلقاً وفي كلّ المراحل، هي أكثر عدداً وأوثق سنداً بالنسبة إلى تلك التي دلّت على خطأه أو نومه. والآن لو افترضنا بأنّ هاتين الطائفتين من النصوص كانتا متكافئتين من حيث العدد والاعتبار، فما هو العلاج حينئذ؟ وبماذا تجيب الشريعة عن هذا التساؤل؟ بخاصة مع غياب المعصوم (عليه السلام) عن الأنظار؟

الحقيقة أن الشريعة تسعفنا بالعلاج الناجح لهذا الداء العضال وتقرّر في أمثال هذه الحالات من التعارض، بأنّه لابدّ أن نأخذ بالحديث الذي يكون موافقاً لكتاب الله (عزّ وجلّ)، وأن نعرض عن الحديث المخالف لكتابه سبحانه، على ما تدلّ عليه النصوص التالية:

١. عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»[٢]، والزخرف هو: المموّه المزوّر والكذب المحسّن.

٢. عن أيّوب بن الحر قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام)، يقول: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) الأصول من الكافي: ج١، ص٦٩.

زخرف»[١].

٣. عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة. إنّ على كلّ حق حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[٢].

على ضوء ما تقرّره هذه النصوص من كيفية العلاج بين الطائفتين المذكورتين، فلا مناص حينئذ من تقديم الروايات التي دلّت على العصمة المطلقة للنبي (صلى الله عليه وآله) وطرح الروايات التي دلّت على صدور الخطأ في الصلاة والنوم، بمقتضى أن الأولى هي التي توافق القرآن الكريم، وذلك من خلال الاستناد إلى ما تقدّم تفصيله من الآيات القرآنية التي أثبتنا من خلالها العصمة المطلقة للأنبياء (عليهم السلام) بمراحلها الثلاث جميعاً.

علّة تقديم القرآن

للإنسان أن يسأل: لماذا نقدم ما دلّ عليه القرآن الكريم وندع ما دلّت عليه روايات أهل البيت (عليهم السلام)، عند التعارض بينهما؟ ألا يقع كلام العترة الطاهرة في عرض القرآن؟

والجواب: أنه قد ثبت في ضوء الدليل العقلي والنقلي أيضاً بأنّ

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١١٠، باب وجوه الجمع بين الأحاديث المختلفة وكيفية العمل بها، ح١٢.

(٢) نفس المصدر والباب، ح٣٥.

هذا القرآن الموجود بين أيدينا هو عين ما نزل على قلب النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله) من غير زيادة أو نقصان، ولم تنله يد التلاعب والوضع[١]. يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

كما يقول أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٣].

أما بالنسبة إلى السنة الشريفة الواردة عن المعصومين (عليهم السلام) فإنّ الأمر ليس كذلك، ولم تبق هذه السنة على ما هي عليه من الصيانة والحفظ والصدور عن المعصومين (عليهم السلام)، بل وقع فيها كثير من الزيادة والنقصان والتلاعب بمضمون النصوص بسبب عوامل كثيرة منها الدسّ والتزوير الذي تحدثنا عنه سابقاً.

ومنها التقية التي كانت تحيط بأهل البيت (عليهم السلام) وأصحابهم، ومنها أن الأئمّة (عليهم السلام) كانوا يكلمون الناس على قدر عقولهم مما يسبّب التفاوت بين مضمون الروايات الواردة عنهم في قضية واحدة.

انطلاقاً من هذه المشكلة المعقّدة وكيفية التخلّص منها، فقد أمر أهل البيت (عليهم السلام) بعرض رواياتهم على كتاب الله الذي لا يأتيه

---

(١) راجع للوقوف على صيانة القرآن وحفظه، إشراقات قرآنية، تقريراً لدروس آية الله الشيخ الجوادي الآملي: ص٩١، ترجمة وتقرير السيد محي الدين المشعل، مكتبة فخراوي، البحرين.

(٢) فصلت: ٤٢.

(٣) الحجر: ٩.

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والأخذ بما وافق القرآن الكريم والإعراض عمّا خالفه.

عود على بدء

يقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1].

ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية المباركة، أنه ترافع بعض الناس إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وكان كلّ من المتخاصمين يسعى لأنّ يبرئ نفسه ويلقي بالتهمة على الآخر، وكان مع أحدهما شهود، ومع الآخر رجل طليق اللسان حاول أن يخدع النبي (صلى الله عليه وآله) بإثارة عواطفه على المتهم البريء، ليقضي بخلاف الحق، وعند ذلك نزلت هذه الآية الكريمة لترفع النقاب عن وجه الحقيقة وتكشف من هو المتهم الحقيقي[2].

لا ريب أن الآية المذكورة هي بصدد إثبات عصمة النبي (صلى الله عليه وآله) وعدم خطأه في مجال تطبيق الشريعة، استناداً إلى سبب النزول

---

(١) النساء: ١١٣.

(٢) راجع الدرّ المنثور: ج٢، ص٦٧٤، وكذلك تفسير ابن كثير: ج١، ص٥٥٥، وتفسير البيضاوي: ج٢، ص٢٥٤.

الذي ذكره المفسرون. فإنّ الخطأ في هذا المجال لا ينفكّ بحال عن الضلال كما نصّت عليه الآية، وهو منفيّ عن الأنبياء (عليهم السلام) بنصّ القرآن الكريم.

لقائل أن يقول: إنّ الآية الكريمة مرتبطة بباب القضاء وفكّ الخصومات، فلعل الأنبياء (عليهم السلام) يخطئون في التطبيق في أبواب أخرى من الشريعة، فلا يتمّ الاستدلال على المطلوب حينئذ؟

جواب ذلك: إنّ الآية قالت: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾، وهذا التعبير بصدد بيان السبب في عدم وقوع الخطأ في باب القضاء، وهو فضل الله ورحمته بالنبي (صلى الله عليه وآله)، ومن المعلوم أنّ فضل الله تعالى ورحمته بالنبي (صلى الله عليه وآله) ليس مختصاً بباب القضاء بل هو ثابت له في كلّ شؤونه وأفعاله.

علماء الإمامية ونفي السهو مطلقاً

اتفق محقّقو الإمامية على نفي السهو عن الأنبياء (عليهم السلام) مطلقاً حتى في تطبيق الشريعة، على ما تدلّ عليه بحوثهم ودراساتهم ومصادرهم، التي نسعى إلى تقديم بعضها.

* كتب الشيخ المفيد (ت: ٤١٣هـ) في رسالته التي يردّ فيها على من ذهب إلى تجويز السهو على النبي والأئمّة في العبادة، ما هذا لفظه: «الحديث الذي روته الناصبة والمقلّدة من الشيعة من أن النبي سها في صلاته فسلّم ركعتين ناسياً، فلما نُبّه على سهوه أضاف إليهما ركعتين

ثم سجد سجدتي السهو، من أخبار الآحاد التي لا تثمر علماً ولا توجب عملاً»[١].

* كتب الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) بعد ما روي حديث أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما سجد سجدتي السهو قط؛ كتب بأن الذي يفتي به هو «ما تضمّنه هذا الخبر، لا الأخبار التي قدّم ذكرها وفيها أن النبي سها فسجد»[٢].

* وذهب المحقق الحلي (ت: ٦٧٦ هـ) في «المختصر النافع» إلى القول: «والحق رفع منصب الإمامة عن السهو في العبادة»[٣].

* وقال المحقق الطوسي (ت: ٦٧٢هـ) في «التجريد»: «ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض، ويجب كمال العقل، والذكاء والفطنة، وقوة الرأي، وعدم السهو»[٤].

* وكتب العلامة الحلّي (ت: ٧٢٦هـ) في «التذكرة»: «وخبر ذي اليدين عندنا باطل، لأن النبي المعصوم لا يجوز عليه السهو»[٥].

---

(١) نقله عنه في التنبيه بالمعلوم من البرهان، الحر العاملي: ص٧، نقلاً عن الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ج٣، ص٢٠١.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، التهذيب: ج٢، ص٣٥١.

(٣) الحلي، أبو القاسم جعفر بن الحسن، المختصر النافع: ص٤٥.

(٤) الطوسي، نصير الدين محمد بن محمد الحسن، تجريد الاعتقاد: ص١٩٥.

(٥) الحلي، الحسن بن يوسف، تذكرة الفقهاء: ج١، ص١٣٠.

كما قال في «الرسالة السعدية» أيضاً: «لو جاز عليه السهو والخطأ، لجاز ذلك في جميع أقواله وأفعاله، فلم يبق وثوق بإخباراته عن الله تعالى، ولا بالشرائع والأديان، لجواز أن يزيد فيها وينقص، فتنتفي فائدة البعثة، ومن المعلوم بالضرورة أن وصف النبي بالعصمة أكمل وأحسن من وصفه بضدها، فيجب المصير إليه، لما فيه من دفع الضرر المظنون بل المعلوم»[(١)].

* وقال الشهيد الأول محمّد بن مكلي العاملي (ت: ٧٨٦هـ) في «الذكرى» بعد ذكره خبر ذي اليدين: «وهو متروك بين الإمامية، لقيام الدليل العقلي على عصمة النبي عن السهو»[(٢)].

الخلاصة

١. يدور البحث في هذا القسم حيال إثبات عصمة الأنبياء في تطبيق ما نزل إليهم من الوحي والشريعة؛ باختصار إثبات العصمة في التطبيق.

٢. اختلفت متبنيات أهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم، مع المدارس والاتجاهات الأخرى السائدة بين المسلمين، إزاء هذه النقطة. فقد آمنت الأخيرة بإمكان خطأ الرسول (صلى الله عليه وآله) في هذا المضمار،

---

(١) الرسالة السعدية: ص٧٦، طبعة النجف نقلاً عن الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني: ج٣، ص٢٠٢.

(٢) العاملي، محمد بن مكي، تذكرة الشيعة: ص١٣٤، نقلاً عن الإلهيات: ج٣، ص٢٠٢.

كأن يسهو في عدد ركعات الصلاة أو يخطئ سهواً في تطبيق الحدود التي أمرت بها الشريعة؛ على حين ذهبت مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) إلى استحالة صدور ذلك من النبي (صلى الله عليه وآله).

٣. لقد استند الرأي القائل بإمكان السهو والخطأ في هذا المجال إلى عدد من النصوص الروائية. وما ارتكز إليه البحث في المناقشة هو احتمال الدس والوضع في هذا المجال بخاصّة مع ما يلحق ذلك من تبعات خطيرة تطال شخصية النبي الأقدس (صلى الله عليه وآله).

أمّا على الصعيد العلمي، فقد عرض البحث إلى مناقشتين، تنصبّ الأولى على معارضة الروايات المذكورة بهذا الشأن، بما هو أقوى منها من حيث السند والمضمون والكثرة.

ثمّ انطلقت المناقشة الثانية من واقع عرض تلك المرويات على القرآن نفسه، وفاقاً لقاعدة عرض الحديث على الكتاب، وأنّ كلّ ما خالف كتاب الله فهو زخرف.

ماذا يقول القرآن؟ يواجهنا قول الحقّ سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]، كما قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ﴾[2]، والأوضح من ذلك قوله: ﴿وَلاَ

---

(١) يونس: ٧- ٨.

(٢) الأعراف: ٢٠٥.

تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾[1].

أبعدَ ذلك، يجوز القول بسهو النبي (صلى الله عليه وآله) فضلاً عن خطأه؟ إنّ للسهو منشأه في الغفلة، والقرآن لا يرضى الغفلة للإنسان، والله يَعدُ صاحبها النار مأوىً له، ثم يأتي من يقول بسهو النبي وخطئه؟!

---

(١) الكهف: ٢٨.

البحث الرابع

العصمة في الشؤون الحياتية

في ضوء الحديث عن عصمة الأنبياء (عليهم السلام) وأنها تقع في مراحل ثلاث تقدّم الحديث عنها مفصلاً، فقد وقع الحديث أيضاً حول عصمتهم (عليهم السلام) في الأمور والقضايا المرتبطة بحياتهم الاعتيادية، أي القضايا التي لا علاقة لها بمسألة الوحي والتبليغ وتطبيقه خارجاً. وذلك كأن يشتبه النبي (صلى الله عليه وآله) أو يخطئ في تشخيص الإنسان القادم من مسافة بعيدة، أو أنه يخطئ في تحديد الوقت الصحيح لتلقيح النخل حينما يسأل عن ذلك؟!! كما نصّت عليه بعض النصوص، منها:

ما ورد عن رافع بن خديج، قال: «قدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة وهم يؤبرون النخل، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنّا نصنعه، قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً، فتركوه فنفضت، فذكروا ذلك كله،

فقال: إنما أنا بشر... وفي رواية أنس: أنتم أعلم بأمور دنياكم»[١]!!

بصرف النظر عن البحث التفسيري أو الكلامي حول هذه الرواية وما يمكن أن يذكر فيه من وجوه لدفع ما ورد فيها، فإنه يمكن أن يقال بصدد ذلك: هل قدم النبي (صلى الله عليه وآله) على سكان المدينة من بلاد الهند أو أطراف سمرقند، بحيث لا يعرف أحوال الزراعة في الجزيرة العربية التي ولد فيها ونشأ وترعرع بين ثناياها؟!!

الرؤية القرآنية

تقودنا منهجية البحث إلى طبيعة الدليل الذي يقرّره القرآن الكريم على عصمة الأنبياء (عليهم السلام) في أمورهم الدنيوية وقضايا حياتهم الاعتيادية. والحقيقة أنّ الرؤية القرآنية لإثبات هذه المرحلة من العصمة، تنطلق من أنّ الأنبياء (عليهم السلام) هم الشهداء على الخلق يوم القيامة.

لا ريب أنّ شهادة الأنبياء (عليهم السلام) على الأمم يوم القيامة هي إحدى الحقائق التي عرض لها القرآن الكريم مفصّلاً، بل إنّ الشهادة في عالم الآخرة ليست مختصة بالأنبياء (عليهم السلام) فقط، وإنما هناك أمور أخرى يمكن أن تشهد على الإنسان في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، كما تدلّ على ذلك الآيات التالية:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[١].

---

(١) التفسير الكبير: ج٩، ص٦٦.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

فالجلود والأيدي إذاً كلّها من الشهداء يوم القيامة، وهي تشهد على الإنسان؛ هذا الإنسان الذي كانت له السلطة على التصرف بهذه الأعضاء والجوارح وكانت مطيعة له في عالم الدنيا!.

من اللطائف القرآنية أنّ الآية تقرّر بأنّ الجلود والأرجل لا تقرّ بالمعصية، بل تشهد على المعصية، وهذا يعني أنّ الجلود والأرجل ليست هي العاصية لأمر الله (عزّ وجلّ)، لأنّه لا معنى لأن تشهد الجلود على نفسها! بل العاصي هو الإنسان الذي كان يسخرها حيث يشاء وكيف يشاء! ومن ثمّ فلابدّ أن نلتفت جميعاً لهؤلاء الشهود الذين لا يفارقوننا في هذه الحياة طرفة عين، وسينطقون بما شاهدوا منّا يوم القيامة.

بيد أنّ المصداق الأوضح لهؤلاء الشهداء الذي ركّز عليهم القرآن الكريم، هم أنبياء الأمم ورسلها (عليهم السلام).

فقد قرّر كتاب الله (عزّ وجلّ) أنّ إحدى الوظائف الملقاة على عاتق الأنبياء (عليهم السلام)، هي أنّ كلّ نبيّ لابدّ أن يكون شاهداً على أمّته يوم الحساب. يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ

---

(١) فصّلت: ٢١.

(٢) يس: ٦٥.

عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾[١].

ويقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كلّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾[٢].

من المعلوم أنّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ «الشهيد» في معنى المقتول في سبيل الله، بل جاء الشهيد في القرآن بمعنى الشاهد على أعمال الخلائق. يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾[٣].

شهادة الأئمّة

إذا كان الأنبياء (عليهم السلام) هم الشهداء على الخلق يوم الحساب، فمن هو الشاهد على الأمّة إذا فقد نبيّها كما هو الحال في الأمّة اليوم؟

نعتقد بأن الشاهد في هذه الحال، هو الإمام المعصوم الذي هو خليفة النبي (صلى الله عليه وآله) على الأمّة، كما ينص القرآن الكريم على الحقيقة في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٤].

تبدأ النقطة التأسيسية لهذا الاستدلال، من معرفة المراد بـ «الأمة الوسط» في هذه الآية الكريمة؟

ذهب المفسّرون من غير مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) إلى أن

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) النحل: ٨٤.

(٣) النساء: ٦٩.

(٤) البقرة: ١٤٣.

المراد بالأمة الوسط هي الأمة الإسلامية جمعاء، فإنها ستشهد على باقي الأمم يوم القيامة، ويكون خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله) هو الشاهد عليها. لكنّ أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فسّروا «الأمة الوسط» بصورة تختلف عن ذلك وأكّدوا أنه من غير الممكن أن يكون المراد بالأمة الوسط هو مجموع الأمة الإسلامية كما تذهب إلى ذلك المدارس الأخرى.

يقرّر الإمام الصادق (عليه السلام) هذه الحقيقة، في الرواية التالية: «عن الزبيري، عنه (عليه السلام) قال: أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر، يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟!، كلا، لم يعن الله مثل هذا من خلقه»[1].

فالمراد إذاً هو «بعض الأمة»، نظير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ مخاطباً بني إسرائيل، والمراد بعضهم. والدليل على أنّ المراد بعض الأمة، هو أنّ أكثر أبنائها ليست لهم معرفة بالأعمال إلا بصورها إذا كانوا في محضر المشهود عليهم، وهو لا يفي في مقام الشهادة، لأنّ المراد منها هو الشهادة على حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان، وعلى كلّ ما خفي عن الحسّ ومستبطن عن الإنسان مما تكسبه القلوب، الذي يدور عليها حساب ربّ العالمين؛ يقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2]، وليس ذلك في وسع الإنسان العادي إذا كان حاضراً عند المشهود عليه، فضلاً عن

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج١، ص١١٣، ح٤٠٩.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

كونه غائباً، وهذا يدلنا على أنّ المراد رجال من الأمة لهم تلك القابلية بعناية من الله تعالى، فيقفون على حقائق أعمال الناس المشهود عليهم، أضف إلى ذلك أن أقل ما يعتبر في الشهود هو العدالة والتقوى، والصدق والأمانة، والأكثرية الساحقة من الأمة يفقدون ذلك وهم لا تُقبل شهادتهم على صاع من تمر أو باقة من بقل، فكيف تُقبل شهادتهم يوم القيامة[1]؟!

أما من هو هذا «البعض» الذي يكون شاهداً على الأمّة يوم القيامة؟ فهذا ما تقرّره الرواية الآتية: «عن بريد العجلي قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): قول الله (تبارك وتعالى) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ قال: نحن الأمة الوسط، ونحن شهداء الله (تبارك وتعالى) على خلقه وحججه في أرضه»[2].

في حديث آخر أنّ الأمة الوسط هم الأمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[3]، وهم أهل البيت (عليهم السلام)، وإلا فكيف تكون خير أمة أخرجت للناس ويوجد فيها أمثال يزيد بن معاوية؟!!

هكذا يتّضح أنّ القرآن الكريم يثبت بأنّ طائفة من الأنبياء

---

(١) السبحاني، الشيخ جعفر، محاضرات في الإلهيات: ص٤٤٣.

(٢) الأصول من الكافي: ج١، ص١٩١، ح٤.

(٣) آل عمران: ١١٠.

والأوصياء (عليهم السلام) يشهدون على أعمال الخلق في الآخرة، ولا تنحصر هذه الأعمال بالأمور الظاهرية كالصلاة والصوم، بل تشمل الأعمال الباطنية والأمور القلبية والنوازع النفسية.

على ضوء هذه القدرة التي يحظى بها الشهداء في التسلط على ظاهر الخلائق وباطنها، فمن غير الممكن حينئذ أن نتصوّر الخطأ والاشتباه ممن كانت لديه هذه الخصلة في حياته الاعتيادية، ومن ثمّ لابدّ أن يكون الشهيد معصوماً في جميع تشخيصاته، صغيرها وكبيرها، وبذلك تثبت عصمته في المرحلة الرابعة.

لكن ما هي الوسيلة التي تمكّن المعصوم (عليه السلام) من الهيمنة على أعمال الخلائق ظاهراً وباطناً؟ لنعد إلى النص الروائي التالي: «عن أبي عبد الله (عليه السلام): إنّ الله إذا أراد أن يخلق الإمام ... إلى أن يقول: فيسمع الصوت في بطن أمه، فإذا وقع على الأرض رفع له منار من نور يرى أعمال العباد جميعاً»[1].

ختامه مسك

يطيب لي أن أختم هذا البحث بذكر مجموعة من الروايات التي دلّت على أنّ أعمال العباد جميعاً تقع في مرأى الأئمّة (عليهم السلام) وأنهم يعلمون بكلّ ما يصدر من الخلق ظاهراً وباطناً.

١. عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «تعرض الأعمال

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٣٧.

على الرسول (صلى الله عليه وآله) أعمال العباد كلّ صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها، وهو قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وسكت»[١].

٢. عن عبد الله بن أبان الزيات وكان مكيناً عند الرضا (عليه السلام)، قال: «قلت للرضا (عليه السلام): ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال: أوَلست أفعل؟ والله إن أعمالكم لتعرض عليّ في كلّ يوم وليلة، قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله (عزّ وجلّ): ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؟ قال: هو علي ابن أبي طالب (عليه السلام)»[٢].

٣. عن يعقوب بن شعيب قال: «سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله (عزّ وجلّ): ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} قال: هم الأئمّة»[٣].

اللهم اجعلنا وجميع المؤمنين والمؤمنات ممن يدخل السرور على قلب النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمّة (عليهم السلام) بأعماله الحسنة كلّ صباح ومساء، ولا تجعلنا ممن يسوؤهم بأعماله السيئة، إنك سميع مجيب، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) الأصول من الكافي: ج١، ص٢١٩.

(٢) نفس المصدر: ص٢٢٠.

(٣) نفس المصدر: ص٢١٩.

الفهارس التفصيلية

- فهرس الآيات
- فهرس الأحاديث
- فهرس المصادر
- فهرس المحتويات

فهرس الآيات الكريمة

﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾..... ١٨٢

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ ١٣٠

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾..... ٢٤، ١٠١

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ ١٤٠

﴿أ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾..... ١٧

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ ١٦٤

﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾..... ٢٨

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾..... ٧٢

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ ٤٢

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ١٣٢

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾..... ٨٥

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾..... ١٣٢

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾..... ٢٤

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ٢١

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ٤٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ ١٢٣
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ٨٩
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ١٤٤
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ١٤٤
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ١٣٢
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ١٠٤
﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي﴾ ..... ٨٦، ٨٧، ١١٧
﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ ٦٨
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ٧٠
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ٤٢
﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ ٩٧
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ١٢٧
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ ٢٢
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ١٦٨
﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٧٢
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ١٠٣
﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ٧١
﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ٥٢
﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ ٢٥

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .....٦٨، ٧٥
﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ٧٦
﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ .....٤١، ٤٥، ٩٧
﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ٤٩
﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾.....٨٨
﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ٧٣
﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ ١٠٨
﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾ ٥٣
﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ٨٥
﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾..... ٨٥
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ .....٣٣، ٤٩
﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ٥٢
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ٣٩
﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ .....١٣٠، ١٥٤
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾.....١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٥٥
﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ٧٠
﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾..... ٤٧
﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ ٥٣
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ ٦٢
﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾.....١٣٢

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ ٧٧
﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ..... ١٤٩، ١٥١
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ١٤٤
﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ ..... ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٥، ١٥٦
﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ٢٩
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ ١٢٨
﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ ٨٠
﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ ١٧٨
﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ١٥٢
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ ٢٨
﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ..... ٨٤، ١١٧
﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ٨٦
﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ٦٣
﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ٧٠
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ..... ١١٣، ١١٨
﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ ٩٤
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ٩٥
﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ ..... ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٥٥
﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ٧٣
﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ ٧٣

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ١٣١
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ٧٧
﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ..... ٣٩، ١٣٢
﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ ... ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٨، ١١٧
﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ٩٢
﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ١٠٣
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ١٠٣
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ١٨٠
﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ٦٣
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ٢٥
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١٨
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ ..... ١٠٠، ١١٢، ١١٨
﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ ٣٢
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ١٠٨
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ ٨٨
﴿لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ١٣٣
﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ١٢٩
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ٧٦
﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ ١٣٦

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ٧٩
﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ ٧٩
﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾..... ٢٨
﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ ٨٩
﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ١٤٤
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.....١٨
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾..... ١٣٠، ١٥٤
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٧٦
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.....٢٩
﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٨٣
﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ..... ٥٣، ٥٥
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ ٤٥
﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾..... ٨٥
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ..... ٢١، ٢٢
﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾..... ١٥١، ١٥٣
﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾ .....١٦٥، ١٧٤
﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ .....٧٧، ٩٨، ١١٧
﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ٧٥
﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ ١٠٧
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ٣٠

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾..... ٦٨
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ .....١٦٥، ١٧٣
﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾..... ١٤٤
﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١٤٤
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾.....١٤٠
﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ١٢٨
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾..... ١٤٤
﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ ١٠٦
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ ١٣٩
﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ٥٣
﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾..... ١٥٢
﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾..... ٤٨
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.....٢٣
﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾.....٨١
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾..... ٢٨
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾..... ٦١، ٧٥
﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾..... ١٣١
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾.....٤٢
﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾.....١٧٧
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .....١٧٨، ١٨٠

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٣٨
﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ٦٨
﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ ..... ١٦٦، ١٧٤
﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ١٥٢
﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ٥٥
﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ ٤٥
﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ ..... ٩٠، ٩١، ٩٢
﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ١٨٠
﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ١٤١
﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ ..... ١٥٧، ١٦٩، ١٧٠
﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ١٢٩
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ..... ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٦
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ ..... ١٣٩، ١٤٠
﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ ٩٦
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٣٣
﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ٤٣
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ١٢٧
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ..... ١١٣، ١٣٠، ١٤١، ١٥٤
﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ ..... ٨٣، ١١٧
﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ ٧٤

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ..... ٧٤، ١٧٨
﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ ١٣٥
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ٢٩
﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ٩٦
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ٢٠
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ٢٩
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ ١٤٣
﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ ٧١
﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ ١٧٨
﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ ..... ٢٧، ١٠٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ..... ١٤٥، ١٥٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ ١١٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ١٠٨
﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ٨٣
﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ ١٤٤
﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٤٤
﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٧٢

فهرس الأحاديث الشريفة

«إذا كان يوم القيامة، قال الله تعالى للعبد: أكنت عالماً؟ فإن قال: نعم، قال: أفلا عملت بما علمت؟» ١٢٨
«ألا حرٌ يدع هذه اللماظة لأهلها، إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة، فلا تبيعوها إلا بها» ١٠٥
«أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري، وأنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي» ٥١
«أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: لم أنس ولم تقصر الصلاة، قال: بل نسيت يا رسول الله، فأقبل رسول الله (ص) على القوم» ١٥٩
«إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم» ١٠٣
«إنّ الله تبارك وتعالى جعل في النبي (ص) خمسة أرواح: روح الحياة فبه دبّ ودرج» ١٦٣
«إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أصناف، فصنف منهم يعبدون شوقاً إلى جنّته ورجاء ثوابه، فتلك عبادة الحزّام (الحرصاء) » ٩٦
«إنّ أنا أخبرتك أنك ستبتلي في هذه الأيام بدم ذي رحم لك، أكنت مصدقاً لي؟ قال: لا، فإنّ الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى» ١٣٧
«إنّ رسول الله (ص) كان في مسير، فناموا عن صلاة واستيقظا بحرّ الشمس

فارتفعوا قليلاً حتّى استقلّت الشمس» ١٥٨
«إنّ رسول الله (ص) سهى فسلّم في ركعتين، ثمّ ذكر حديث ذي الشمالين، فقال: ثمّ قام فأضاف إليها ركعتين» ١٦٠
«إنّي والله ما آمركم إلا ما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجدّ والاجتهاد» ١١٣
«إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي» ١٣٨
«أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني» ٥١
«أيها الناس قد كثرت الكذابة عليّ، فمن كذّب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار» ١٦١
«الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر» ١١٠
ربّ عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه» ١٠٧
«سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: هم الأئمة» ١٨٢
«صراً بني الكرام فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة» ١٠٤
«صلّى رسول الله (ص) خمساً الظهر أو العصر، فلمّا انصرف قيل له يا رسول الله أزيد في الصلاة؟» ١٥٩
«طهّرهم عن كلّ شيء سواه إذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان» ٨٢
«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة المشي إلا بعداً» ٣٥
«عرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا» ٧٨
«فإذا وقع على الأرض رفع له منار من نور يرى أعمال العباد جميعاً» ١٨١

«فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبيائه، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته» ١٢٨
«فقال رسول الله (ص): قوموا عن مكانكم الذي أصابكم فيه الغفلة» ١٦٥
«فمنها أن يعلم الإمام المتولي عليه أنه معصوم من الذنوب كلّها صغيرها وكبيرها» ١٦٢
«قال رسول الله (ص): ما خلص عبدٌ لله عزّ وجلّ أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ٩٩
«قال: نحن الأمّة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه وحججه في أرضه» ١٨٠
«كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض» ١٦
«كلّ شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف» ١٦٧
«كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع» ١١٣
«لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنّة» ١٦١
«لا يعرف بالقياس ولا يدرك بالحواس ولا يشبه الناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا يجور في حكمه» ٣٢
«لقد همّت به، ولولا رأى برهان ربّه لهمّ بها كما همّت به، لكنّه كان معصوماً والمعصوم لا يهمّ بذنب» ٩٢
«لم يعن الله مثل هذا من خلقه» ١٧٩
«اللهم ارحم قومي فإنّهم لا يعلمون» ٥٤
«اللهم إني أسأل باسمك الأعظم الأعظم الأعظم» ٣٨

«ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف» ١٦٦
«متى بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل إليك» ٣٠
«من عرفكم فقد عرف الله، ومن جهلكم فقد جهل الله» ٤٩
«هو نفسه ونفسه هو، قدرته نافذة فليس يحتاج أن يسمّي نفسه» ٣٧
«وا أمّتاه» ٥٤
«والإخلاص وضدّه الشوب» ٧٨
«والله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ في كلّ يوم وليلة» ١٨٢
«وإنّ العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده، شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً» ١٦٣
«الوقوف على الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة» ١٦٧
«ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا تعالى وسنّة نبيّنا (ص) » ١٦١
«وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وما شيء بينهما، كلما قرب من أحد بعد من الآخر، وهما بعد ضرتان» ١٠٩
«يا رسول الله هل زيد في الصلاة شيء؟ فقال: وما ذاك؟ قال: صليت بنا خمس ركعات، قال: فاستقبل القبلة وكبّر» ١٦٠

فهرس المصادر والمراجع

١. ابن فارس، مقاييس اللغة.

٢. أبو ريّة، الشيخ محمود، شيخ المضيرة أبو هريرة.

٣. أحمد بن حنبل، المسند، نشر دار الصادق، بيروت.

٤. الأصفهاني، الإمام الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق عدنان صفوان داوودي، در القلم، دمشق، ١٩٩٢م.

٥. الأصفهاني، الشيخ محمّد حسين (ت: ١٣٦١هـ)، الأنوار القدسيّة، صحّحه وعلّق عليه علي النهاوندي، مؤسّسة المعارف الإسلامية.

٦. الأفريقي، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، نشر دار صادر، بيروت.

٧. الآملي، الشيخ جوادي، إشراقات قرآنية، بقلم السيد محي الدين المشعل، مكتبة فخراوي، البحرين، ١٩٩٦م.

٨. الأيجي القاضي عضد الدين بعد الرحمن بن أحمد، المواقف، بشرح السيد علي بن محمد الجرجاني.

٩. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ

١٠. البيضاوي (ت: ٧٩١هـ)، تفسير البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦.

١١. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر (ت:٤٥٨هـ)، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.

١٢. الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت.

١٣. الحكيم، السيد محمد تقي، الأصول العامّة للفقه المقارن، ط٢، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، الطبعة المصورة.

١٤. الحويزي، الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، قم، المطبعة العلمية.

١٥. الخميني، الإمام روح الله الموسوي، الأربعون حديثاً، ترجمة السيد محمد الغروي، دار الكتب الإسلامي.

١٦. الدمشقي أبو الغداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت.

١٧. الرازي، محمد بن زكريا، التفسير الكبير، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.

١٨. السبحاني، الشيخ جعفر، محاضرات في الإلهيات، مؤسسة

الصادق عليه السلام، قم المقدسة.

١٩. السلمي (ت:٤١٢هـ)، حقائق التفسير، حققه الأب بوليس نويا.

٢٠. السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين (ت:٩١١هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت.

٢١. الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت:٤٣٦هـ)، الشافي في الإمامة، ط٢، مؤسسة الصادق، طهران، ١٤١٠هـ

٢٢. الصدر، السيد محمد باقر، المدرسة القرآنية، مركز أبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر (قدس سره)، ١٤٢١هـ

٢٣. الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي (ت: ٣٨١هـ)، الاعتقادات في دين الإمامية.

٢٤. الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، طبعة مؤسسة التاريخ، بيروت.

٢٥. الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢٦. الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

٢٧. الطبرسي، أحمد بن علي (ت:٥٦٠هـ)، الاحتجاج، تحقيق السيد محمد باقر الخرسان، منشورات دار النعمان.

٢٨. الطوسي، محمد بن الحسن، أمالي الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة، ط١، دار الثقافة.

٢٩. العاملي، محمد بن الحسن الحر (ت: ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ط٢، ١٤١٤هـ

٣٠. الغزالي، أبو حامد (ت:٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، طبعة دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢.

٣١. القاضي، السيد محمد، العصمة: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني، تقريراً لبحوث السيد كمال الحيدري.

٣٢. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج أبو عبد الله (ت: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط٢، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، نشر دار الشعب، القاهرة.

٣٣. القمي: المحدث الشيخ عباس، سفينة النجاة، طبعة النجف الأشرف.

٣٤. الكاشاني، المولى محسن، المحجّة البيضاء، ط٥، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٢١هـ

٣٥. كسّار، جواد علي، التوحيد: بحوث في مراتبه ومعطياته، تقريراً لدروس السيد كمال الحيدري، دار الصادقين للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.

٣٦. الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ط٦، دار الكتب الإسلامية.

٣٧. المازندراني، الملا محمد صالح (ت:١٠٨١هـ)، شرح أصول الكافي.

٣٨. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣م.

٣٩. محمد عبده، شرح نهج البلاغة، دار المعرفة، بيروت.

٤٠. المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

٤١. المفيد، محمد بن النعمان (ت: ٤١٣هـ)، الاعتقادات، تحقيق عصام عبد السيد.

٤٢. المفيد، محمد بن النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، طبعة مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ١٤١٣هـ

٤٣. المناوي، محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٠هـ

٤٤. الميلاني، السيد علي، نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ

٤٥. النجفي، الشيخ محمد حسن (ت: ١٢٦٦هـ)، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ط٣، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٧هـ ش.

٤٦. الورداني، د. صالح، دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين، الناشر تريدنكو، ١٩٩٧م.

فهرس الكتاب

الإهداء ٧

المقدّمة ٩

القسم الأول
المقدّمات التأسيسيّة

تمهيد ١٥

المقدمة الأولى: النبوّة على ضوء القرآن ١٦

المقدّمة الثانية: الإنسان على ضوء القرآن ١٩

الهدف من وجود الإنسان ٢٣

معنى قوسي النزول والصعود ٢٦

المقدّمة الثالثة: الصعود إلى الله ٢٧

معنى القرب منه سبحانه ٣٠

هل يعبد الإنسان ما لا يعرف؟ ٣٤

المقدّمة الرابعة: دور الأنبياء في القرآن ٣٦
البعد المعرفي في شخصية الأنبياء ٣٧
معرفة الله من خلال الأسماء والصفات ٣٩
المقدّمة الخامسة: درجات الأنبياء في القرآن..... ٤٤
البعد العملي في شخصية الأنبياء ٤٦
المقدّمة السادسة: تفاوت الخطاب مع الله ومع الناس ٥٠
المقدّمة السابعة: المنهج القرآني في البحث حول الأنبياء ٥٥
الخلاصة ٥٦

القسم الثاني
مراحل العصمة وطرق إثباتها

تمهيد ٦١
العصمة فكرة قرآنية ٦٢
العصمة في ضوء المعنى اللغوي ٦٣
مراحل العصمة ٦٤

البحث الأول: العصمة في الواجب وترك المحرمات

الطريق الأول: الصراط المستقيم ٦٧

الهداية والضلال في ضوء الصّراط المستقيم..... ٦٩
شبهة وجواب..... ٧٥
الطريق الثاني: الإخلاص والاجتباء ٧٦
حقيقة الإخلاص عند أهل المعرفة ٨٠
الفرق بين المخلِص والمخلَص..... ٨١
المخلَصون كما يصفهم القرآن ٨٣
معنى السوء والفحشاء ٨٧
قصّة يوسف..... ٨٩
كيف يكون الإنسان من المخلَصين؟ ٩٢
درجات المخلصين ٩٦
ثمرات الإخلاص في دار الدنيا..... ٩٨
الطريق الثالث: الأسوة والقدوة ٩٩
حاجة الإنسان إلى السماء..... ١٠٠
ما هو الصراط المستقيم؟..... ١٠٤
التربية على ضوء المنهج القرآني ١٠٨
الانحلال الاجتماعي بغياب القدوة الصالحة ١١٤
الخلاصة..... ١١٥

البحث الثاني: العصمة في تلقّي الوحي وإبلاغه

الطريق الأول ١٢١
الحاجة إلى الوحي في الوصول إلى الله..... ١٢٢
تحليل آية ١٢٨
الطريق الثاني:..... ١٣٠
للرسل جميعاً..... ١٣٦
الأئمّة وعلم الغيب..... ١٣٦
مناقشة الفخر الرازي ١٣٩
الطريق الثالث ١٤١
مقدمة في الطاعة ١٤٢
رأي الرازي..... ١٤٥
طاعة أولي الأمر ١٤٥
مناقشة الرازي..... ١٤٨
الخلاصة..... ١٥٣

البحث الثالث: العصمة في التطبيق

الخطأ في تطبيق الشريعة في ضوء النصوص ١٥٨
مناقشة روايات السهو والنسيان..... ١٦٢
المناقشة الأولى: المعارضة بالأقوى..... ١٦٢
المناقشة الثانية: العرض على القرآن ١٦٦

علّة تقديم القرآن..... ١٦٧
عود على بدء..... ١٦٩
علماء الإمامية ونفي السهو مطلقاً..... ١٧٠
الخلاصة..... ١٧٢

البحث الرابع: العصمة في الشؤون الحياتية

الرؤية القرآنية..... ١٧٦
شهادة الأئمّة..... ١٧٨
ختامه مسك..... ١٨١

الفهارس العامّة

فهرس الآيات الكريمة..... ١٨٥
فهرس الأحاديث الشريفة..... ١٩٥
فهرس المصادر والمراجع..... ١٩٩
فهرس الكتاب..... ٢٠٥